

تفسير سورة التوبة وهي مدنية

نصف

الحزب

١٩

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ
وَأَعْلَمُوا أَنَّكَ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾﴾

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ كما قال البخاري: (١) حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول آخر آية نزلت ﴿بَسْتَشْتُونَكَ قُلِّ اللَّهُ يُتْبِعُكُمْ فِي الْكَلْبَةِ﴾ [النساء: ١٧٦] وآخر سورة نزلت براءة، وإنما لا يبسمل في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسمل في أولها في المصحف الإمام، بل اقتدوا في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه، كما قال الترمذي: (٢) حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد ومحمد بن جعفر وابن أبي عدى وسهل بن يوسف قالوا: حدثنا عوف بن أبي جميلة، أخبرني يزيد الفارسي، أخبرني ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المثين وقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطول ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: «ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا»، فإذا نزلت عليه الآية فيقول: «ضعوا هذه الآية في المكان الذي يذكر فيها كذا وكذا». وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها وحسبت أنها منها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطوال، وكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه (٣) من طرق آخر عن عوف الأعرابي به.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك وأنهم يطوفون بالبيت عراة، فكره مخالطتهم وبعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج هذه السنة ليقيم للناس مناسكهم ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادى في الناس براءة فلما قفل أتبعه بعلى بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ لكونه عصبه له كما سيأتي بيانه.

فقوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي هذه براءة أي تبرؤ من الله ورسوله ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ اختلف المفسرون هنا اختلافاً كثيراً، فقال قائلون: هذه الآية

(١) البخاري (٤٦٥٤).

(٢) ضعيف: الترمذي (٣٠٨٦). انظر ضعيف سنن الترمذي (٥٩٩).

(٣) ضعيف: المسند (٤٠١)، أبو داود (٧٨٦)، النسائي في الكبرى (١٠/٥) برقم (٨٠٠٧)، ابن حبان (١/٢٣٠)، برقم (٤٣)، الحاكم في المستدرک (٢/٢٤١)، برقم (٢٨٧٥)، (٣٦٠)، انظر تعليق الشيخ أحمد شاكر على المسند.

لذوى العهود المطلقة غير المؤقتة أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان، لقوله تعالى: ﴿فَأْتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَكُمْ إِنْ مَدَّيْتُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، ولما سيأتى فى الحديث. ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهداه إلى مدته وهذا أحسن الأقوال وأقواها، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله، وروى عن الكلبي ومحمد بن كعب القرظي وغير واحد. وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: ﴿بِرَّاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ الآية، قال: حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسيحون فى الأرض حيثما شاءوا وأجل من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النحر إلى انسلاخ المحرم فذلك خمسون ليلة، وقال الضحاك: فأمر الله نبيه إذا انسلخ المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد بقتلهم حتى يدخلوا فى الإسلام، وأمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر أن يضع فيهم السيف أيضًا حتى يدخلوا فى الإسلام.

وقال أبو معشر المدني: حدثنا محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميرًا على الموسم سنة تسع، وبعث على بن أبى طالب بثلاثين آية أو أربعين آية من براءة فقرأها على الناس، يؤجل المشركين أربعة أشهر يسيحون فى الأرض فقرأها عليهم يوم عرفة أجل المشركين عشرين من ذى الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشرًا من ربيع الآخر، وقراها عليهم فى منازلهم وقال: لا يحجن بعد عامنا هذا مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان^(١). وقال ابن أبى نجيح، عن مجاهد ﴿بِرَّاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلى أهل العهد خزاعة ومدلج ومن كان له عهد أو غيرهم، أقبل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ فأراد رسول الله ﷺ الحج ثم قال: «إنما يحضر المشركون فيطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك» فأرسل أبا بكر وعليًا رضى الله عنهما فطافا بالناس فى ذى المجاز وبأمكناتهم التى كانوا يتبايعون بها وبالمواسم كلها، فأذنوا أصحاب العهد بأن يؤتمنوا أربعة أشهر فهى الأشهر المتواليات عشرون من ذى الحجة إلى عشر يخلون من ربيع الآخر ثم لا عهد لهم، وأذن الناس كلهم بالقتال إلا أن يؤمنوا، وهكذا روى عن السدى وقتادة، قال الزهري: كان ابتداء التأجيل من شوال وآخره سلخ المحرم، وهذا القول غريب وكيف يحاسبون بمدة لم يبلغهم حكمها وإنما ظهر لهم أمرها يوم النحر حين نادى أصحاب رسول الله ﷺ بذلك ولهذا قال تعالى:

﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ حَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ قَوَيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا يَعْذَابِ إِلَيْهِ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى: وإعلام ﴿بِرَّاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وتقدم وإنذار إلى الناس ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ وهو يوم النحر الذى هو أفضل أيام المناسك وأطهرها وأكثرها جمعًا ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ أى برىء منهم أيضًا ثم دعاهم إلى التوبة إليه، فقال ﴿فَإِنْ تَبْتُمْ﴾ أى مما أنتم فيه من الشرك والضلال ﴿فَهُوَ

(١) رواه ابن جرير فى تفسيره (١٠/٦١).

حَيْرَ لَكُمْ وَإِنْ قَوَّيْتُمْ ﴿١﴾ أى استمررتم على ما أنتم عليه ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزُّ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ بل هو قادر عليكم وأنتم فى قبضته وتحت قهره ومشيتته، ﴿وَشَرَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أى فى الدنيا بالخزى والنكال وفى الآخرة بالمقامع والأغلال، قال البخارى رحمه الله ^(١) : حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث، حدثنى عقيل عن ابن شهاب قال: أخبرنى حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: بعثنى أبو بكر رضى الله عنه فى تلك الحجة فى المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان.

قال حميد: ثم أوقف النبى ﷺ على بن أبى طالب فأمره أن يؤذن ببراءة، قال أبو هريرة فأذن معنا على فى أهل منى يوم النحر ببراءة، وأن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ورواه البخارى أيضًا: ^(٢) حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب عن الزهري، أخبرنى حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: بعثنى أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى: لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس الحج الأصغر، فنبذ أبو بكر إلى الناس فى ذلك العام فلم يحج عام حجة الوداع الذى حج فيه رسول الله ﷺ مشرك، هذا لفظ البخارى فى كتاب الجهاد. وقال عبد الرزاق: عن معمر عن الزهري عن ابن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه فى قوله: ﴿بِرَّاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ١] قال: لما كان النبى ﷺ زمن حنين اعتمر من الجعرانة ثم أمر أبا بكر على تلك الحجة، قال معمر: قال الزهري: وكان أبو هريرة يحدث أن أبا بكر أمر أبا هريرة أن يؤذن ببراءة فى حجة أبى بكر، قال أبو هريرة: ثم أتبعنا النبى ﷺ عليًا وأمره أن يؤذن ببراءة وأبو بكر على الموسم كما هو أو قال: على هيئته. وهذا السياق فيه غرابة من جهة أن أمير الحج كان سنة عمرة الجعرانة إنما هو عتاب بن أسيد فأما أبو بكر إنما كان أميرًا سنة تسع.

وقال الإمام أحمد: ^(٣) حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن مغيرة عن الشعبي عن محرز بن أبى هريرة عن أبيه قال: كنت مع على بن أبى طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة فقال: ما كنتم تتنادون؟ قال: كنا ننادى أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله أو مدته إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله برىء من المشركين ورسوله، ولا يحج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك، قال: فكنت أنادى حتى صحل صوتى، وقال الشعبي: حدثنى محرز بن أبى هريرة عن أبيه قال: كنت مع على بن أبى طالب رضى الله عنه حين بعثه النبى ﷺ ينادى فكان إذا صحل ناديت فقلت: بأى شيء كنتم تتنادون؟ قال بأربع، لا يطوف بالكعبة عريان، ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهدته إلى مدته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يحج بعد عامنا هذا مشرك. رواه ابن جرير ^(٤) من غير وجه عن الشعبي، ورواه شعبة عن مغيرة عن الشعبي به، إلا أنه قال: ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهدته إلى أربعة أشهر وذكر تمام الحديث. قال ابن جرير: ^(٥) وأخشى أن يكون وهما من بعض نقلته لأن الأخبار متظاهرة فى الأجل بخلافه.

(٢) البخارى (٣١٧٧).

(٤) ابن جرير فى تفسيره (٦٣/١٠).

(١) البخارى برقم (٤٦٥٦).

(٣) ضعيف: المسند (٧٩١٧).

(٥) تفسير الطبرى (٦٤/١٠).

وقال الإمام أحمد: ^(١) حدثنا عفان، حدثنا حماد عن سماك عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ بعثه ببراءة مع أبي بكر فلما بلغ ذا الحليفة قال: «لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي» فبعث بها مع علي بن أبي طالب رضى الله عنه، ورواه الترمذى فى التفسير: ^(٢) عن بندار عن عفان وعبد الصمد كلاهما عن حماد بن سلمة به، ثم قال: حسن غريب من حديث أنس رضى الله عنه، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: ^(٣) حدثنا محمد بن سليمان، - لؤين - حدثنا محمد بن جابر عن سماك عن حنش عن علي رضى الله عنه قال: لما نزلت عشر آيات من براءة على النبي ﷺ دعا النبي ﷺ أبا بكر فبعثه بها ليقرأها على أهل مكة ثم دعاني فقال: «أدرك أبا بكر فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه فاذهب إلى أهل مكة فاقرأه عليهم» فلحقته بالجحفة فأخذت الكتاب منه ورجع أبو بكر إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، نزل فيّ شيء؟ فقال «لا»، ولكن جبريل جاءني فقال: لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك» هذا إسناد فيه ضعف، وليس المراد أن أبا بكر رضى الله عنه رجع من فوره بل بعد قضائه المناسك التى أمره عليها رسول الله ﷺ كما جاء مبيّنًا فى الرواية الأخرى. وقال عبد الله أيضًا: ^(٤) حدثنى أبو بكر، حدثنا عمرو بن حماد عن أسباط بن نصر عن سماك عن حنش عن علي رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ حين بعثه ببراءة قال: يا نبى الله إني لست باللسن ولا بالخطيب قال: «ما بد لي أن أذهب بها أنا أو تذهب بها أنت» قال: فإن كان ولا بد فسأذهب أنا، قال: «انطلق فإن الله يثبت لسانك ويهدى قلبك» قال: ثم وضع يده على فيه.

وقال الإمام أحمد: ^(٥) حدثنا سفيان عن أبي إسحاق عن زيد بن يثيع رجل من همدان، سألنا عليًا بأى شيء بعثت؟ يعنى يوم بعثه النبي ﷺ مع أبي بكر فى الحجّة، قال: بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فعهدة إلى مدته، ولا يحج المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا، ورواه الترمذى ^(٦) عن قلابة عن سفيان بن عيينة وقال: حسن صحيح كذا قال، ورواه شعبة عن أبي إسحاق فقال عن زيد بن أنثيل وهم فيه، ورواه الثورى عن أبي إسحاق عن بعض أصحابه عن علي رضى الله عنه.

وقال ابن جرير: ^(٧) حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو أسامة عن زكريا عن أبي إسحاق عن زيد بن يثيع عن علي قال: بعثنى رسول الله ﷺ حين أنزلت براءة بأربع: أن لا يطوف بالبيت عريان، ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ثم رواه ابن جرير ^(٨) عن محمد بن عبد الأعلى عن أبي ثور عن معمر عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي قال: أمرت بأربع... فذكره، وقال إسرائيل ^(٩) عن أبي إسحاق عن زيد بن يثيع قال: نزلت براءة فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر ثم أرسل عليًا فأخذها منه، فلما رجع أبو بكر

(١) حسن: المسند (١٢٨٠٢).

(٢) حسن: الترمذى (٣٠٩٠).

(٣) زوائد المسند (١٢٩٩)، قال الهيثمي فى المجمع (٢٩/٧): فيه محمد بن جابر السحيمي، وهو ضعيف وقد وثق.

(٤) زوائد المسند (١٢٨٩).

(٥) صحيح: المسند (٥٩٥).

(٦) صحيح: الزوائد (٨٧١)، (٣٠٩٢).

(٧) تفسير ابن جرير الطبري (٦٤/١٠).

(٨) تفسير ابن جرير الطبري (٦٤/١٠).

(٩) تفسير ابن جرير الطبري (٦٤/١٠).

قال: نزل في شيء؟ قال: «لا ولكن أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي» فانطلق إلى أهل مكة فقام فيهم بأربع . . . لا يدخل مكة مشرك بعد عامه هذا، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهد إلى مدته، وقال محمد بن إسحاق (١) عن حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي قال: لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ وقد كان بعث أبا بكر ليقوم الحج للناس فقيل يا رسول الله: لو بعثت إلى أبي بكر؟ فقال: «لا يؤدي عنى إلا رجل من أهل بيتي» ثم دعا عليًا فقال: «أخرج بهذه القصة من صدر براءة وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو له إلى مدته» فخرج على رضى الله عنه على ناقة رسول الله ﷺ العصابة حتى أدرك أبا بكر في الطريق فلما رآه أبو بكر قال: أمير أو مأمور؟ فقال بل مأمور، ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب فأذن في الناس بالذي أمره رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته، فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطوف بالبيت عريان، ثم قدما على رسول الله ﷺ فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام وأهل المدة إلى الأجل المسمى.

وقال ابن جرير: (٢) حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أخبرنا أبو زرعة وهب الله بن راشد، أخبرنا حيوة بن شريح، أخبرنا أبو صخر أنه سمع أبا معاوية البجلي من أهل الكوفة يقول: سمعت أبا الصهباء البكري وهو يقول: سألت علي بن أبي طالب عن يوم الحج الأكبر فقال: إن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر بن أبي قحافة يقيم للناس الحج ويعثني معه بأربعين آية من براءة حتى أتى عرفة فخطب الناس يوم عرفة، فلما قضى خطبته التفت إلى فقال: قم يا علي فأد رسالة رسول الله ﷺ، فقامت فقرأت عليهم أربعين آية من براءة، ثم صدرنا فأتينا منى فرميت الجمره ونحرت البدنة ثم حلقت رأسى وعلمت أن أهل الجمع لم يكونوا حضروا كلهم خطبة أبى بكر يوم عرفة فطفت أتتبع بها الفساطيط أقرأها عليهم فمن ثم أخال حسبتم أنه يوم النحر ألا وهو يوم عرفة. وقال عبد الرزاق (٣) عن معمر عن أبى إسحاق سألت أبا جحيفة عن يوم الحج الأكبر قال: يوم عرفة، فقلت: أمن عندك أم من أصحاب محمد ﷺ؟ قال: كل في ذلك، وقال عبد الرزاق (٤) أيضًا: عن ابن جريج عن عطاء قال: يوم الحج الأكبر يوم عرفة. وقال عمر بن الوليد الشنقى: حدثنا شهاب بن عباد العصري عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: هذا يوم عرفة هذا يوم الحج الأكبر فلا يصومه أحد. قال: فحججت بعد أبى فاتيت المدينة فسألت عن أفضل أهلها فقالوا: سعيد بن المسيب فاتيته

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٦٥/١٠)، من طريق محمد بن إسحاق.

(٢) تفسير ابن جرير الطبري (٦٧/١٠).

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره (٦٨/١٠) من طريق عبد الرزاق به.

(٤) رواه ابن جرير في تفسيره (٦٨/١٠) من طريق عبد الرزاق به.

فقلت: إنى سألت عن أفضل أهل المدينة فقالوا: سعيد بن المسيب فأخبرنى عن صوم يوم عرفة، فقال: أخبرك عن من هو أفضل منى مائة ضعف عمر أو ابن عمر، كان ينهى عن صومه ويقول هو يوم الحج الأكبر، رواه ابن جرير^(١) وابن أبى حاتم، وهكذا روى عن ابن عباس وعبد الله بن الزبير ومجاهد وعكرمة وطاوس أنهم قالوا: يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر.

وقد ورد فيه حديث مرسل رواه ابن جريج، أخبرت عن محمد بن قيس بن مخزومة أن رسول الله ﷺ خطب يوم عرفة فقال: «هذا يوم الحج الأكبر»^(٢) وروى من وجه آخر: عن ابن جريج عن محمد بن قيس عن المسور بن مخزومة عن رسول الله ﷺ أنه خطبهم بعرفات فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فإن هذا يوم الحج الأكبر».

والقول الثانى أنه يوم النحر قال هشيم عن إسماعيل بن أبى خالد عن الشعبي عن على بن عبد الله عنه قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر، وقال أبو إسحاق السبيعي عن الحارث الأعور: سألت علياً بن عبد الله عنه عن يوم الحج الأكبر فقال: هو يوم النحر، وقال شعبة عن الحكم سمعت يحيى بن الجزار يحدث عن على بن عبد الله عنه أنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبابة فجاء رجل فأخذ بلجام دابته فسأله عن يوم الحج الأكبر فقال هو يومك هذا خل سبيلها.

وقال عبد الرزاق: عن سفيان عن شعبة عن عبد الملك بن عمير عن عبد الله بن أبى أوفى أنه قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر، وروى شعبة وغيره عن عبد الملك بن عمير به نحوه. وهكذا رواه هشيم وغيره عن الشيبانى عن عبد الله بن أبى أوفى. وقال الأعمش عن عبد الله بن سنان قال: خطبنا المغيرة بن شعبة يوم الأضحى على بعير فقال: هذا يوم الأضحى وهذا يوم النحر وهذا يوم الحج الأكبر، وقال حماد بن سلمة عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: الحج الأكبر يوم النحر، وكذا روى عن أبى جحيفة وسعيد بن جبيرة وعبد الله بن شداد بن الهاد ونافع بن جبيرة بن مطعم والشعبي وإبراهيم النخعي ومجاهد وعكرمة وأبى جعفر الباقر والزهرى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا: يوم الحج الأكبر هو يوم النحر واختاره ابن جرير، وقد تقدم الحديث عن أبى هريرة فى صحيح البخارى أن أبا بكر بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى، وقد ورد فى ذلك أحاديث أخر كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير: ^(٣) حدثنى سهل بن محمد السجستاني، حدثنا أبو جابر الحرمي، حدثنا هشام بن الغاز الجرشي عن نافع عن ابن عمر قال: وقف رسول الله ﷺ يوم النحر عند الجمرات فى حجة الوداع فقال: «هذا يوم الحج الأكبر» وهكذا رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه من حديث أبى جابر واسمه محمد بن عبد الملك به، ورواه ابن مردويه أيضاً من حديث الوليد بن مسلم عن هشام بن الغاز به، ثم رواه من حديث سعيد بن عبد العزيز عن نافع به، وقال شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة الهمداني عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قام فىنا رسول الله ﷺ على ناقه حمراء مخضرة فقال: «أتدرون أى يوم يومكم هذا؟» قالوا: يوم النحر، قال: «صدقتم يوم الحج الأكبر»^(٤).

(١) ابن جرير فى تفسيره (٦٨/١٠).

(٢) رواه ابن جرير الطبري فى تفسيره (٦٨/١٠)، عن ابن جريج.

(٣) صحيح: ابن جرير فى تفسيره (٧٣/١٠). (٤) صحيح: تفسير الطبري (٧٣/١٠).

وقال ابن جرير: ^(١) حدثنا أحمد بن المقدم، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا ابن عون عن محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال: لما كان ذلك اليوم قعد رسول الله ﷺ على بعير له وأخذ الناس بخطامه أو زمامه، فقال: «أى يوم هذا؟» قال: فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، فقال «ليس هذا يوم الحج الأكبر؟» وهذا إسناد صحيح وأصله مخرج في الصحيح. ^(٢) وقال أبو الأحوص عن شبيب بن غرقدة عن سليمان بن عمرو بن الأحوص عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال: «أى يوم هذا؟» فقالوا: يوم الحج الأكبر، وعن سعيد بن المسيب أنه قال: يوم الحج الأكبر اليوم الثاني من يوم النحر رواه ابن أبي حاتم، وقال مجاهد أيضًا: يوم الحج الأكبر أيام الحج كلها، وكذا قال أبو عبيد. قال سفيان: يوم الحج ويوم الجمل ويوم صفين أي: أيامه كلها، وقال سهل السراج: سئل الحسن البصري عن يوم الحج الأكبر؟ فقال: ما لكم وللحج الأكبر؟ ذاك عام حج فيه أبو بكر الذي استخلفه رسول الله ﷺ فحج بالناس رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: ^(٣) حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو أسامة عن ابن عون، سألت محمدًا يعني ابن سيرين عن يوم الحج الأكبر، فقال: كان يومًا وافق فيه حج رسول الله ﷺ وحج أهل الدير.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْفُسُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا أَحَدًا فَأَتَوْا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٠﴾﴾

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت، فأجله أربعة أشهر يسيح في الأرض يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهدته إلى مدته، وذلك بشرط أن لا ينقض المعاهد عهده ولم يظاهر على المسلمين أحدًا أي يمالئ عليهم من سواهم، فهذا الذي يوفى له بدمته وعهده إلى مدته ولهذا حرض تعالى على الوفاء بذلك، فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي الموفين بعهدهم.

﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾﴾

اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم ههنا ما هي؟ فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة في قوله تعالى: ﴿يُنَهَىٰ رَبِّيكَ حُرْمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَيْسُ فَلَا تَغْلِبُوا فِيهِمْ أَنفُسُكُمْ﴾ الآية [التوبة: ٣٦]، قاله أبو جعفر الباقر، ولكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقهم المحرم، وهذا الذي ذهب إليه حكاه على بن أبي طلحة عن ابن عباس وإليه ذهب الضحاك أيضًا وفيه نظر، والذي يظهر من حيث السياق ما

(١) صحيح: الطبري (١٠/٧٣).

(٢) البخاري برقم (٦٧)، مسلم (١٦٧٩)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٣) ابن جرير في تفسيره (١٠/٧٢).

ذهب إليه ابن عباس فى رواية العوفى عنه، وبه قال مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن إسحاق وقادة والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها بقوله ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢] ثم قال: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْمُرُومَ﴾ أى إذا انقضت الأشهر الأربعة التى حرمتنا عليكم فيها قتالهم وأجلناهم فيها فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر، ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتى بيان حكمها فى آية أخرى بعد فى هذه السورة الكريمة.

وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أى من الأرض وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال فى الحرم، بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ مَا قَتَلْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] وقوله: ﴿وَعَذُّوهُمْ﴾ أى وأسروهم إن شئتم قتلا وإن شئتم أسرا، وقوله: ﴿وَاحْضَرُوهُمْ وَأَقْمِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أى لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار فى معاقلمهم وحصونهم والرصد فى طرفهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ولهذا اعتمد الصديق رضى الله عنه فى قتال مانعى الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال وهى الدخول فى الإسلام والقيام بأداء واجباته، ونبه بأعلاها على أذناها فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلاة التى هى حق الله عز وجل، وبعدها أداء الزكاة التى هى نفع متعد إلى الفقراء والمحايير وهى أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين، ولهذا كثيرا ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة. وقد جاء فى الصحيحين^(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة» الحديث، وقال أبو إسحاق: عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومن لم يترك فلا صلاة له، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة وقال: يرحم الله أبا بكر ما كان أفقه!

وقال الإمام أحمد: ^(٢) حدثنا على بن إسحاق، أنبأنا عبد الله بن المبارك، أنبأنا حميد الطويل عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله واستقبلوا فبنتنا وأكلوا ذبيحتنا وصلوا صلاتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم» ورواه البخارى فى صحيحه وأهل السنن^(٣) إلا ابن ماجه، من حديث عبد الله بن المبارك به، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: ^(٤) حدثنا عبد الأعلى بن واصل الأسدى، حدثنا عبيد الله بن موسى أخبرنا أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده

(١) البخارى برقم (٢٥)، مسلم برقم (٢٢). (٢) صحيح: المسند (١٢٦٤٣).

(٣) البخارى برقم (٣٩٣)، أبو داود برقم (٢٦٤١)، الترمذى (٢٦٠٨)، النسائى برقم (٣٩٦٧).

(٤) ضعيف: الطبرى (٧٨/١٠)، ابن ماجه (٧٠)، فيه: الربيع بن أنس، ضعيف. انظر: مصباح الزجاجة للبوصيرى (١٢/١).

وعبادته لا يشرك به شيئاً فارقتها والله عنه راضٍ قال: وقال أنس: هو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء، وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما أنزل، قال الله تعالى: ﴿إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ قال: توبتهم خلع الأوثان وعبادة ربهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم قال في آية أخرى: ﴿إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَكُمْ فِي الَّذِينَ﴾ [التوبة: ١١] ورواه ابن مردويه ورواه محمد بن نصر المروزي^(١) في كتاب الصلاة له. حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أنبأنا حكام بن سلم، حدثنا أبو جعفر الرازي به سواء، وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم: إنها نسخت كل عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين وكل عهد وكل مدة، وقال العوفي: عن ابن عباس في هذه الآية لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة منذ نزلت براءة، وانسلاخ الأشهر الحرم ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل أربعة أشهر، من يوم أذن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر، وقال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس في هذه الآية قال: أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام، ونقض ما كان سمي لهم من العهد والميثاق، وأذهب الشرط الأول.

وقال ابن أبي حاتم: (٢) حدثنا أبي حدثنا إسحاق بن موسى الأنصاري قال: قال سفيان بن عيينة: قال علي بن أبي طالب: بعث النبي ﷺ بأربعة أسياف سيف في المشركين من العرب، قال الله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ هكذا رواه مختصراً، وأظن أن السيف الثاني هو قتال أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] والسيف الثالث قتال المنافقين في قوله ﴿يَأْتِيَنَّكَ مِنَ الْكُفَّارِ الْتَوَيْقِينَ﴾ الآية [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩]، والرابع قتال الباغين في قوله ﴿وَإِن طَلَبْتَنَّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتِنَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَتْ حَتَّى تَقْبَلَ إِلَا أَمْرَ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] ثم اختلف المفسرون في آية السيف هذه فقال الضحاك والسدي هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَأْبَهُ وَوَيْتًا فَنَدَهُ﴾ [محمد: ٤] وقال قتادة بالعكس.

﴿وَإِن أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّقِ اللَّهَ مَأْمَنَةً ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَإِن أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين امرتك بقتالهم وأحلت لك استباحة نفوسهم وأموالهم ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ أى استأمنك فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله أى القرآن تقرأه عليه وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم عليه به حجة الله ﴿ثُمَّ اتَّقِ اللَّهَ مَأْمَنَةً﴾ أى وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ﴿ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في عبادته.

وقال ابن أبي نجیح عن مجاهد في تفسير هذه الآية قال: إنسان يأتيك يسمع ما تقول وما أنزل عليك فهو آمن حتى يأتيك فيسمع كلام الله وحتى يبلغ مأمنه حيث جاء، ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطى

(١) تعظيم قدر الصلاة (١/٨٦)، برقم (١). (٢) تفسير ابن أبي حاتم (٥/٩٢٥٤).

الأمان لمن جاءه مسترشداً أو فى رسالة، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم: عروة بن مسعود ومكرز بن حفص وسهيل بن عمرو وغيرهم، واحداً بعد واحد يترددون فى قضية بينه وبين المشركين فأرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم، ولهذا أيضاً لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟ قال نعم، فقال رسول الله ﷺ: «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك»^(١) وقد قبض الله له ضرب العنق فى إمارة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له ابن النواحة ظهر عنه فى زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له: إنك الآن لست فى رسالة وأمر به فضربت عنقه لا رحمه الله ولعنه.

والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام فى أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب، وطلب من الإمام أو نائبه أماناً أعطى أماناً ما دام متردداً فى دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمته ووطنه، لكن قال العلماء لا يجوز أن يمكن من الإقامة فى دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان عن الإمام الشافعى وغيره من العلماء رحمهم الله.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يبين تعالى حكمته فى البراءة من المشركين ونظرتة إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرفه أين ثقفوا فقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ وأمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعنى يوم الحديبية، كما قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَى مَكْرُوهًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ﴾ الآية [الفتح: ٢٥]، ﴿فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أى مهما تمسكوا بما عاهدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون. استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذى القعدة فى سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد ومالتوا حلفاءهم وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ فقتلوهم معهم فى الحرم أيضاً فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ فى رمضان سنة ثمان ففتح الله عليه البلد الحرام ومكنه من نواصيهم ولله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسموا الطلقاء، وكانوا قريباً من ألفين، ومن استمر على كفره وفر من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير فى الأرض أربعة أشهر يذهب حيث شاء، منهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله.

(١) صحيح: أبو داود (٢٧٦١)، أحمد (١٥٥٥٩) بنحوه.

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾^(٥)

يقول تعالى محرضاً للمؤمنين على معادة المشركين والتبري منهم ومبيّناً أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله ﷺ، ولأنهم لو ظهروا على المسلمين وأدبلوا عليهم لم يبقوا ولم يذروا ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة. قال على بن أبي طلحة وعكرمة والعمري عن ابن عباس: الإلّ القرابة والذمة العهد. وكذا قال الضحاك والسدي كما قال تميم بن مقبل:

أفسد الناس خلوفَ خلفوا قطعوا الإلّ وأعراق الرحم
وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه:

وجدناهم كاذباً إلهم وذو الإلّ والعهد لا يكذب
وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا﴾، قال: الله، وفي رواية لا يرقبون الله ولا غيره.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عليه عن سليمان عن أبي مجلز في قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ مثل قوله جبريل ميكائيل إسرافيل كأنه يضيف «جبر» و«ميكائيل» و«إسرافيل» إلى «إيل» يقول عبد الله ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا﴾ كأنه يقول لا يرقبون الله، والقول الأول أشهر وأظهر وعليه الأكثر. وعن مجاهد أيضاً الإلّ العهد. وقال قتادة: الإلّ الحلف.

﴿أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٦) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿٧﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُقِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى ذمّاً للمشركين وحثاً للمؤمنين على قتالهم ﴿أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعنى أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أى منعوا المؤمنين من اتباع الحق ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ تقدم تفسيره وكذا الآية التي بعدها ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ إلى آخرها تقدمت.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: ^(١) حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا يحيى بن أبي بكر، حدثنا أبو جعفر الرازى، حدثنا الربيع بن أنس قال: سمعت أنس بن مالك يقول قال رسول الله ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته لا يشرك به، وأقام الصلاة وآتى الزكاة فارقها والله عنه راضٍ» وهو دين الله الذى جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم، قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء وتصديق ذلك فى كتاب الله ﴿فَإِن تَابُوا﴾ يقول فإن خلعوا الأوثان وعبادتها ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وقال فى آية أخرى ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ ثم قل البزار: آخر الحديث عندى والله أعلم فارقها وهو راضٍ وباقه عندى من كلام الربيع بن أنس.

﴿وَإِنْ نَكَرْتُمْ أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنَا فِي دِينِكُمْ فَقَتِّلُوا آيَمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ﴿وَإِنْ نَكَرْتُمْ﴾ هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة ﴿أَيْمَانَهُمْ﴾ أى عهودهم ومواثيقهم ﴿وَطَعْنَا فِي دِينِكُمْ﴾ أى عابوه وانتقصوه، ومن ههنا أخذ قتل من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه أو من طعن فى دين الإسلام أو ذكره بتنقص، ولهذا قال: ﴿فَقَتِّلُوا آيَمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَمَأْهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ أى يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال. وقد قال قتادة وغيره: أئمة الكفر. كأبى جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف وعدد رجالاً، وعن مصعب بن سعد بن أبى وقاص قال: مر سعد برجل من الخوارج فقال الخارجى: هذا من أئمة الكفر، فقال سعد كذبت بل أنا قاتلت أئمة الكفر، رواه ابن مردويه، وقال الأعمش عن زيد بن وهب عن حذيفة أنه قال ما قوتل أهل هذه الآية بعد.

وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه مثله، والصحيح أن الآية عامة وإن كان سبب نزولها مشركى قريش فهى عامة لهم ولغيرهم والله أعلم وقال: الوليد بن مسلم: حدثنا صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير بن نفيير، أنه كان فى عهد أبى بكر رضى الله عنه إلى الناس حين وجههم إلى الشام قال: إنكم ستجدون قوماً مُحَوَّقَةً رُؤُوسِهِمْ، فاضربوا معاقد الشيطان منهم بالسيف، فو الله لأن أقتل رجلاً منهم أحب إلى من أن أقتل سبعين من غيرهم وذلك بأن الله يقول: ﴿فَقَتِّلُوا آيَمَةَ الْكُفْرِ﴾ رواه ابن أبى حاتم.

﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَرْتُمْ أَيْمَانَهُمْ وَهَكُمَا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوْلَكِ مَرْءٌ مَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾ قَتَلْتُمْ بِعَدْبِهِمْ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَسُوفُ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيَذْهَبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

وهذا أيضاً تهيج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين لأيمانهم الذين هموا بإخراج الرسول من مكة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَبْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْسِتُوا أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَكْفُرُونَ بِوَعْدِكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمُنْكَرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ الآية [المتحنة: ١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُوا مِنْ أَرْضٍ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَسُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الآية [الإسراء: ٧٦]، وقوله: ﴿وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوْلَكِ مَرْءٌ﴾ قيل المراد بذلك: يوم بدر حين خرجوا لنصر عيرهم، فلما نجت وعلموا بذلك استمروا على وجوههم، طلباً للقتال بغياً وتكبراً كما تقدم بسط ذلك، وقيل المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بنى بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح وكان ما كان ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿أَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يقول تعالى لا تخشوهم واخشون فإنا أهل أن يخشى العباد من سطوتى وعقوبتى فيبىدى الأمر وما شئت كان وما لم يكن، ثم قال عزيمة على المؤمنين وبيانا لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من

عنده: ﴿قَتَلُوهُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْزِلُهُمُ عَلَيْهِمْ رِجْفًا شَدِيدًا قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٦﴾﴾: وهذا عام في المؤمنين كلهم، وقال مجاهد وعكرمة والسدي في هذه الآية ﴿وَرِجْفًا شَدِيدًا قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني خزاعة، وأعاد الضمير في قوله: ﴿وَيَذُوبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ عليهم أيضًا. وقد ذكر ابن عساکر في ترجمة مؤذن لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه عن مسلم بن يسار عن عائشة رضى الله عنها، أن رسول الله ﷺ كان إذا غضبت أخذ بأنفها وقال «يا عويش قولى اللهم رب النبى محمد اغفر ذنبى، وأذهب غيظ قلبى وأجرنى من مضلات الفتن» ساقه من طريق أبى أحمد الحاكم، عن الباغدى عن هشام بن عمار حدثنا عبد الرحمن بن أبى الجون عنه ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أى من عباده ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أى بما يصلح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ فى أفعاله وأقواله الكونية والشرعية فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم الذى لا يجور أبدًا ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر، بل يجازى عليه فى الدنيا والآخرة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أيها المؤمنون أن نترككم مهملين لا نختبركم بأمر يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ أى بطانة ودخيلة بل هم فى الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله فاكتفى بأحد القسمين عن الآخر كما قال الشاعر:

وما أدرى إذا يمسّت أرضًا أريد الخير أيهما يلىنى

وقد قال الله تعالى فى الآية الأخرى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشِرْكٍ قَبْلِهِمْ تَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِمْ وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِمْ وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِمْ وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِمْ﴾ [المنكيات: ١-٣] وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْجَنَّةَ لِمَا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الْقَابِضِينَ﴾ [إم عمران: ١٤٢]، ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِقَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [الآية] [إم عمران: ١٧٩]، والحاصل أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد بين أن له فيه حكمة وهو اختبار عبيده من يطيعه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون فيعلم الشيء قبل كونه ومع كونه على ما هو عليه لا إله إلا هو ولا رب سواه، ولا راد لما قدره وأمضاه.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦٨﴾﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَمَسَّوْا أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى ما ينبغى للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التى بنيت على اسمه وحده لا شريك له، ومن قرأ «مسجد الله» فأراد به المسجد الحرام أشرف المساجد فى الأرض الذى بنى من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له، وأسس خليل الرحمن، هذا وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر أى بحالهم وقالهم قال السدى: لو سألت النصرانى ما دينك؟ لقال نصرانى، ولو سألت اليهودى ما دينك؟

لقال يهودى، والصابىء لقال صابىء، والمشرك لقال مشرك ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ أى بشركهم ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَنَفَّوْنَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤] ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْزُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد كما قال الإمام أحمد: (١) حدثنا شريح، حدثنا ابن وهب عن عمرو بن الحارث، أن دراجاً أبا السمع حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدرى، أن رسول الله ﷺ قال «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان». قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْزُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ورواه الترمذى وابن مردويه والحاكم فى مستدركه (٢) من حديث عبد الله بن وهب به.

وقال عبد بن حميد فى مسنده: (٣) حدثنا يونس بن محمد حدثنا صالح المرى عن ثابت البنانى عن ميمون بن سياه وجعفر بن زيد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما عمار المساجد هم أهل الله» ورواه الحافظ أبو بكر البزار: (٤) عن عبد الواحد بن غياث عن صالح بن بشير المرى عن ثابت عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما عمار المساجد هم أهل الله» ثم قال: لا نعلم رواه عن ثابت غير صالح، وقد روى الدارقطنى (٥) فى الأفراد من طريق حكامه بنت عثمان بن دينار عن أبيها عن أخيه مالك بن دينار عن أنس مرفوعاً «إذا أراد الله بقوم عاهة نظر إلى أهل المساجد فصرف عنهم» ثم قال: غريب، وروى الحافظ البهائى (٦) فى المستقصى عن أبيه بسنده إلى أبى أمية الطرسوسى، حدثنا منصور بن صقير، حدثنا صالح المرى عن ثابت عن أنس مرفوعاً يقول الله: وعزتى وجلالى إنى لأهم بأهل الأرض عذاباً فإذا نظرت إلى عمار بيوتى وإلى المتحابين فى وإلى المستغفرين بالأسحار صرفت ذلك عنهم. ثم قال ابن عساكر: حديث غريب.

وقال الإمام أحمد: (٧) حدثنا روح حدثنا سعيد عن قتادة، حدثنا العلاء بن زياد عن معاذ بن جبل أن النبى ﷺ قال: «إن الشيطان ذئب الإنسان، كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية، فأياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعمامة والمسجد» وقال عبد الرزاق: (٨) عن معمر عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون الأودى قال: أدركت أصحاب محمد ﷺ وهم يقولون: إن المساجد بيوت الله فى الأرض وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها. وقال المسعودى: عن حبيب بن أبى ثابت وعدى بن ثابت عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: من سمع النداء بالصلاة ثم لم يجب ويأتى المسجد ويصلى فلا صلاة له وقد عصى الله ورسوله. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْزُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ

(١) ضعيف: المسند (٢٧٣٠٨)، (٢٧٣٢٥).

(٢) ضعيف: الترمذى (٢٦١٧)، (٣٠٩٣)، الحاكم فى المستدرک (٣٣٢/١)، برقم (٧٧٠)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. فى إسناده: دراج أبو السمع، ضعيف عن أبى الهيثم. انظر ضعيف الجامع رقم (٥٠٩).

(٣) ضعيف: مسند عبد بن حميد (٣٨٧/١)، برقم (١٢٩١).

(٤) البزار رقم (٤٣٣- كشف) فى إسناده: صالح المرى، وهو ضعيف: انظر ميزان الاعتدال (٣/٣٩٧).

(٥) ضعيف: انظر: ضعيف الجامع رقم (٣٤٥).

(٦) ضعيف: انظر ضعيف الجامع رقم (١٧٥١).

(٧) ضعيف: المسند (٢١٥٢٤). قال الهيثمى فى المجمع (٢٣/٢): العلاء بن زياد لم يسمع من معاذ اهـ.

(٨) رواه البيهقى فى شعب الإيمان (٨٢/٣) برقم (٢٩٤٣)، من طريق عبد الرزاق به.

ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿الآية﴾، رواه ابن مردويه .

وقد روى مرفوعاً من وجه آخر، وله شواهد من وجوه آخر ليس هذا موضع بسطها . وقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أى التى هى أكبر عبادات البدن ﴿وَمَاتَى الزَّكَاةَ﴾ أى التى هى أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق، وقوله ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أى ولم يخف إلا من الله تعالى ولم يخش سواه ﴿فَسَوَّىٰ أَوْلِيَّكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله ﴿إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يقول: من وحده الله وآمن باليوم الآخر يقول من آمن بما أنزل الله ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ يعنى الصلوات الخمس ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ يقول لم يعبد إلا الله ثم قال: ﴿فَسَوَّىٰ أَوْلِيَّكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ يقول تعالى: إن أولئك هم المفلحون كقوله لنبىه ﷺ: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: 7٩] يقول: إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً وهى الشفاعة، وكل عسى فى القرآن فهى واجبة، وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله: وعسى من الله حق .

ثلاثة

أربع

الحزب

١٩

﴿أَجْمَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٦﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأَوْلِيَّكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٧﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَيْسُورٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ خَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾

قال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية قال: إن المشركين قالوا: عمارة بيت الله وقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره، فذكر الله استكبارهم وإعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَغْفَٰكِكُمْ تُنْكِرُونَ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِنِيرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٦-٦٧] يعنى أنهم كانوا يستكبرون بالحرم قال ﴿بِهِ سِنِيرًا﴾ [المؤمنون: ٦٧] كانوا يسمرون به ويهجرون القرآن والنبي ﷺ فخير الله الإيمان والجهاد مع النبي ﷺ على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به، وإن كانوا يعمرن بيته ويخدمونه به . قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعنى الذين زعموا أنهم أهل العمارة فسامهم الله ظالمين بشركهم فلم تغن عنهم العمارة شيئاً .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية قال: قد نزلت فى العباس بن عبد المطلب حين أسر ببدر قال: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعلم المسجد الحرام ونسقى الحاج ونفك العانى، قال الله عز وجل: ﴿أَجْمَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ - إلى قوله - ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعنى أن ذلك كله كان فى الشرك ولا أقبل ما كان فى الشرك، وقال الضحاك بن مزاحم: أقبل المسلمون على العباس وأصحابه الذين أسروا يوم بدر يعيرونهم بالشرك، فقال العباس: أما والله لقد كنا نعلم المسجد الحرام ونفك العانى ونحجب البيت ونسقى الحاج، فأنزل الله ﴿أَجْمَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ الآية .

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة عن إسماعيل عن الشعبي: قال: نزلت فى على والعباس

رضى الله عنهما تكلما في ذلك .

وقال ابن جرير: ^(١) حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة عن أبي صخر قال: سمعت محمد بن كعب القرظي يقول افتخر طلحة بن شيبه من بنى عبد الدار وعباس بن عبد المطلب وعلى بن أبي طالب فقال طلحة: أنا صاحب البيت معى مفتاحه ولو أشاء بت فيه . وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها ولو أشاء بت فى المسجد، فقال على رضى الله عنه: ما أدري ما تقولان لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله عز وجل ﴿أَجَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ الآية كلها، وهكذا قال السدى إلا أنه قال: افتخر على والعباس وشيبه بن عثمان وذكر نحوه .

وقال عبد الرزاق: ^(٢) أخبرنا معمر عن عمرو عن الحسن قال: نزلت فى على وعباس وعثمان وشيبه تكلموا فى ذلك، فقال العباس: ما أرانى إلا تارك سقائتنا، فقال رسول الله ﷺ «أقيموا على سقائتكم فإن لكم فيها خيراً» ورواه محمد بن ثور: عن معمر عن الحسن فذكر نحوه، وقد ورد فى تفسير هذه الآية حديث مرفوع فلا بد من ذكره هنا، قال عبد الرزاق: ^(٣) أخبرنا معمر عن يحيى بن أبى كثير عن النعمان بن بشير رضى الله عنه أن رجلا قال: ما أبالى أن أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج . وقال آخر: ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أعمار المسجد الحرام . وقال آخر: الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلت . فزجرهم عمر رضى الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ ، وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صلينا الجمعة دخلنا على النبى ﷺ فسألناه . فنزلت ﴿أَجَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْمُرَارِ﴾ - إلى قوله - ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ .

(طريق أخرى) قال الوليد بن مسلم حدثني معاوية بن سلام عن جده أبى سلام الأسود عن النعمان بن بشير الأنصارى قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه فقال رجل منهم: ما أبالى أن لا أعمل لله عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج .

وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام وقال آخر: بل الجهاد فى سبيل الله خير مما قلت فزجرهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ ، وذلك يوم الجمعة ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه . قال ففعل فأنزل الله عز وجل ﴿أَجَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْمُرَارِ﴾ - إلى قوله - ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ورواه مسلم فى صحيحه وأبو داود وابن جرير وهذا لفظه، وابن مردويه وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم وابن حبان فى صحيحه ^(٤) .



(١) ابن جرير فى تفسيره (٩٦/١٠) .

(٢) تفسير عبد الرزاق (٢٤٣/١) .

(٣) صحيح: تفسير عبد الرزاق (٢٤٣/١) .

(٤) مسلم (١٨٧٩)، الطبري (٩٥/١٠)، ابن حبان فى صحيحه (٤٥١/١٠)، برقم (٤٥٩١) .

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا مآبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى
 الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ
 وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ قَنَزَتْهَا وَبِحَدَرَةٍ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ
 مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الْفَاسِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

أمر تعالى بمباينة الكفار به وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم إن ﴿استحبوا﴾ أى اختاروا
 الكفر على الإيمان، وتوعد على ذلك كقوله تعالى ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
 حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ
 الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنَّا وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢] ، وروى الحافظ
 البيهقي ^(١) من حديث عبد الله بن شوذب قال: جعل أبو أبى عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر
 وجعل أبو عبيدة يحيد عنه فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله فانزل الله فيه هذه الآية ﴿لَا تَجِدُ
 قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢] . ثم أمر تعالى رسوله
 أن يتوعد من آثر أهله وقربائه وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في سبيله فقال: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ
 وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ قَنَزَتْهَا وَبِحَدَرَةٍ تَخْشَوْنَ
 كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا﴾ أى تحبونها لطبيعتها وحسنها، أى إن كانت هذه الأشياء ﴿أحبَّ إليكم
 مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ أى فانظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم ولهذا قال
 ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ .

وقال الإمام أحمد: ^(٢) حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ابن لهيعة عن زهرة بن معبد عن جده قال: كنا
 مع رسول الله ﷺ وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب فقال: والله يا رسول الله لانت أحب إلى من كل شيء
 إلا من نفسى، فقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» فقال عمر: فأنت
 الآن والله أحب إلى من نفسى، فقال رسول الله ﷺ: «الآن يا عمر» انفرد بإخراجه البخارى ^(٣) فرواه
 عن يحيى بن سليمان عن ابن وهب عن حيوة بن شريح عن أبى عقيل زهرة بن معبد أنه سمع جده
 عبد الله بن هشام عن النبى ﷺ بهذا، وقد ثبت فى الصحيح ^(٤) عنه ﷺ أنه قال: «والذى نفسى بيده لا
 يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» وروى الإمام أحمد وأبو داود ^(٥)
 واللفظ له من حديث أبى عبد الرحمن الخراسانى عن عطاء الخراسانى عن نافع عن ابن عمر قال:
 سمعت رسول الله ﷺ يقول «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد
 سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم» وروى الإمام أحمد ^(٦) أيضا عن يزيد بن هارون

(١) السنن الكبرى للبيهقي (٢٧/٩)، وقال: هذا منقطع .

(٢) صحيح: المسند (١٨٤٨٢) . البخارى برقم (٦٦٣٢) .

(٤) البخارى (١٥)، ومسلم (٤٤)، من حديث أنس رضي الله عنه .

(٥) صحيح: المسند (٤٨١٠)، أبو داود (٣٤٦٢) .

(٦) المسند (٤٩٨٧) .

عن أبي جناب عن شهر بن حوشب أنه سمع عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ بنحو ذلك، وهذا شاهد للذي قبله . والله أعلم .

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٩١﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

قال ابن جريج عن مجاهد: هذه أول آية نزلت من براءة يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله، وأن ذلك من عنده تعالى وبأيديه وتقديره لا بعددهم ولا بعددهم ولا بعددهم ونيهمم على أن النصر من عنده سواء قل الجمع أو كثر فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ ثم أنزل نصره وتأيدته على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه كما سنيناه إن شاء الله تعالى مفصلاً ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قل الجمع فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين .

وقد قال الإمام أحمد: (١) حدثنا وهب بن جرير حدثنا أبي سمعت يونس يحدث عن الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف ولن تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة». وهكذا رواه أبو داود والترمذي (٢) ثم قال: هذا حديث حسن غريب جداً لا يسنده كبير أحد غير جرير بن حازم، وإنما روى عن الزهري عن النبي ﷺ مرسلأ . وقد رواه ابن ماجه والبيهقي (٣) وغيره عن أكثم بن الجون عن رسول الله ﷺ بنحوه والله أعلم . وقد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة .

وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة وتمهدت أمورها وأسلم عامة أهلها وأطلقهم رسول الله ﷺ فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه وأن أميرهم مالك بن عوف النضري، ومعه ثقيف بكمايها وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وأوزاع من بني هلال وهم قليل وناس من بني عمرو بن عامر وعوف بن عامر وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم وجاءوا بقضهم وقضيضهم فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ومعه الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء في ألفين أيضاً فسار بهم إلى العدو فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له حنين فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم، ورشقوا بالنبال وأصلتوا السيوف وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم فعند ذلك ولي المسلمون مدبرين كما قال الله عز وجل، وثبت

(١) صحيح: المسند (٢٦٧٧).

(٢) صحيح: أبو داود (٢٦١١)، الترمذي (١٥٥٥)، وقال أبو داود: والصحيح أنه مرسل .

(٣) صحيح: ابن ماجه (٢٨٢٧)، البيهقي في سننه الكبرى (١٥٧/٩)، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٣/١٦٩): هذا الإسناد ضعيف، لضعف أبي سلمة العاملي وعبد الملك بن محمد .

رسول الله ﷺ وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحو العدو، والعباس عمه أخذ بركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخذ بركابها الأيسر يثقلانها لثلاث تسرع السير وهو ينوه باسمه عليه الصلاة والسلام ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول: «أين يا عباد الله؟ إني أنا رسول الله» ويقول في تلك الحال: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»^(١) وثبت معه من أصحابه قريب من مائة ومنهم من قال ثمانون فمنهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما والعباس وعلى والفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث وأيمن بن أم أيمن وأسامة بن زيد وغيرهم رضى الله عنهم ثم أمر ﷺ عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادى بأعلى صوته يا أصحاب الشجرة يعنى شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على أن لا يفروا عنه فجعل ينادى بهم يا أصحاب السمرة، ويقول تارة يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون يا لبيك يا لبيك، وانعطف الناس فجعلوا يتراجعون إلى رسول الله ﷺ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ فلما اجتمعت شرذمة منهم عند رسول الله ﷺ أمرهم عليه السلام أن يصدقوا الحملة وأخذ قبضة من تراب بعد ما دعا ربه واستنصره، وقال «اللهم أنجز لى ما وعدتني» ثم رمى القوم بها فما بقى إنسان منهم إلا أصابه منها فى عينيه وفمه ما شغله عن القتال ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجذلة بين يدي رسول الله ﷺ.

وقال الإمام أحمد: ^(٢) حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا يعلى بن عطاء عن عبد الله بن يسار أبي همام عن أبي عبد الرحمن الفهرى واسمه يزيد بن أسيد ويقال يزيد بن أنيس ويقال كرز قال: كنت مع رسول الله ﷺ فى غزوة حنين فسرنا فى يوم قاتظ شديد الحر فنزلنا تحت ظلال الشجر فلما زالت الشمس لبست لأمتى وركبت فرسى فانطلقت إلى رسول الله ﷺ وهو فى فسطاطه فقلت السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته حان الرواح؟ فقال: «أجل» فقال: «يا بلال» فثار من تحت سمرة كأن ظلها ظل طائر فقال: لبيك وسعديك وأنا فداؤك فقال «أسرج لى فرسي» فأخرج سرجاً دفناه من ليف ليس فيهما أشر ولا بطر قال فأسرج فركبنا فصاففناهم عشيتنا وليلتنا فتشامت الخيلان فولى المسلمون مدبرين كمال قال الله تعالى: «ثُمَّ وَكُنْتُمْ مُّذِرِينَ» فقال رسول الله ﷺ «يا عباد الله أنا عبد الله ورسوله» ثم قال: «يا معشر المهاجرين أنا عبد الله ورسوله» قال ثم اقتحم رسول الله ﷺ عن فرسه فأخذ كفاً من تراب فأخبرنى الذى كان أدنى إليه منى أنه ضرب به وجوههم وقال: «شاهت الوجوه» فهزمهم الله تعالى.

قال يعلى بن عطاء: فحدثنى أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه تراباً وسمعنا صلصلة بين السماء والأرض كإمرار الحديد على الطست الحديد، وهكذا رواه الحافظ البيهقى فى دلائل النبوة من حديث أبى داود الطيالسى عن حماد بن سلمة به، وقال محمد بن إسحاق:

(١) أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، مسلم (١٧٧٦).

(٢) صحيح: المسند (٢١٩٦١).

تنبيه: فى مسند أحمد: «قال حدثنا بهز حدثنا حماد بن سلمة»

حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله قال: فخرج مالك بن عوف بمن معه إلى حنين فسبق رسول الله ﷺ إليه فأعدوا وتهيثوا في مضائق الوادي وأحناؤه وأقبل رسول الله ﷺ وأصحابه حتى انحط بهم الوادي في عماية الصبح فلما انحط الناس ثارت في وجوههم الخيل فشدت عليهم وانكفأ الناس منهزمين لا يقبل أحد على أحد وانحاز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات اليمين يقول: «أيها الناس هلموا إلى أنا رسول الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله» فلا شيء وركبت الإبل بعضها بعضاً فلما رأى رسول الله ﷺ أمر الناس قال: «يا عباس اصرخ يا معشر الأنصار يا أصحاب السمر» فأجابوه ليك، ليك، فجعل الرجل يذهب ليعطف بغيره فلا يقدر على ذلك فيقذف درعه في عنقه ويأخذ سيفه وقوسه ثم يؤم الصوت حتى اجتمع إلى رسول الله ﷺ منهم مائة فاستعرض الناس فاقتتلوا وكانت الدعوة أول ما كانت بالأنصار ثم جعلت آخرًا بالخزرج وكانوا صُبرًا عند الحرب وأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه فنظر إلى مجتلد القوم فقال: «الآن حمى الوطيس» قال: فو الله ما راجعه الناس إلا والأسارى عند رسول الله ﷺ فقتل الله منهم من قتل وانهمز منهم من انهزم وأفاء الله على رسوله أموالهم وأبناءهم.

وفي الصحيحين^(١) من حديث شعبة عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب رضى الله عنهما أن رجلاً قال له: يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، إن هوازن كانوا قوما رماة فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهم فانهزم الناس فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث أخذ بلجام بغلته البيضاء وهو يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب» قلت: وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة إنه في مثل هذا اليوم في حومة الرغى وقد انكشف عنه جيشه وهو مع هذا على بغلة وليست سريعة الجرى ولا تصلح لفر ولا لكر ولا لهرب وهو مع هذا أيضًا يركضها إلى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكل عليه وعلم منه بأنه سينصره ويتم ما أرسله به ويظهر دينه على سائر الأديان، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أي طمأنينته وثباته على رسوله ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الذين معه ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة كما قال الإمام أبو جعفر ابن جرير حدثني الحسن بن عرفة قال حدثني المعتمر بن سليمان عن عوف بن أبي جميلة الأعرابي قال سمعت عبد الرحمن مولى بن برثن حدثني رجل كان مع المشركين يوم حنين قال لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين لم يقوموا لنا حَلَبَ شاة، قال: فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول الله ﷺ قال: فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه فقالوا لنا شامت الوجوه ارجعوا قال فانهمزنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: (٢) أنبأنا أبو عبد الله الحافظ حدثني محمد بن أحمد بن بالويه حدثنا إسحاق بن الحسن الحرابي حدثنا عفان بن مسلم حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الحارث بن حصيرة حدثنا القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه قال: قال ابن مسعود رضى الله عنه: كنت مع رسول الله ﷺ يوم

(١) البخاري (٢٨٦٤)، مسلم (١٧٧٦). (٢) صحيح: البيهقي في دلائل النبوة (١٤٣/٥).

حنين فولى عنه الناس وبقيت معه فى ثمانين رجلا من المهاجرين والأنصار قدمنا ولم نولهم الدبر وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة قال: ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضى قدما فحادثت بغلته فمال عن السرج فقلت: ارتفع رفعك الله. قال: «ناولنى كفاً من التراب» فناولته قال: فضرب به وجوههم فامتلات أعينهم تراباً قال: «أين المهاجرون والأنصار؟» قلت: هم هناك قال: «اهتف بهم» فهتفت بهم فجاءوا وسوفهم بأيمانهم كأنها الشهب وولى المشركون أديبارهم، ورواه الإمام أحمد^(١) فى مسنده عن عفان به نحوه.

وقال الوليد بن مسلم: حدثنى عبد الله بن المبارك عن أبى بكر الهذلى عن عكرمة مولى ابن عباس عن شيبه بن عثمان قال: لما رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين قد عرى ذكرت أبى وعمى وقتل على وحمزة إياهما فقلت اليوم أدرك تأرى منه قال: فذهبت لأجيئه عن يمينه فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائما عليه درع بيضاء كأنها فضة يكشف عنها العجاج فقلت: عمه ولن يخذله قال فجتته عن يساره فإذا أنا بأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فقلت: ابن عمه ولن يخذله فجتته من خلفه فلم يبق إلا أن أسوره سورة بالسيف إذ رفع لى شواظ من نار بينى وبينه كأنه برق فخفت أن تمحشنى فوضعت يدى على بصرى ومشيت القهقرى فالتفت رسول الله ﷺ وقال: «يا شيب يا شيب ادن منى، اللهم أذهب عنه الشيطان» قال: فرفعت إليه بصرى وهو أحب إلى من سمعى وبصرى فقال: «يا شيب قاتل الكفار» رواه البيهقى من حديث الوليد فذكره.

ثم روى من حديث أيوب بن جابر عن صدقة بن سعيد عن مصعب بن شيبه عن أبيه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ يوم حنين والله ما أخرجنى إسلام ولا معرفة به ولكنى أبيت أن تظهر هوازن على قريش فقلت وأنا واقف معه: يا رسول الله إنى أرى خيلاً بلقاً فقال: «يا شيبه إنه لا يراها إلا كافر» فضرب يده فى صدرى ثم قال: «اللهم اهد شيبه» ثم ضربها الثانية ثم قال: «اللهم اهد شيبه» ثم ضربها الثالثة ثم قال: «اللهم اهد شيبه» قال: فوالله ما رفع يده عن صدرى فى الثالثة حتى ما كان أحد من خلق الله أحب إلى منه وذكر تمام الحديث ثم التقاء الناس وانتهزام المسلمين ونداء العباس واستنصار رسول الله ﷺ حتى هزم الله تعالى المشركين.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى والدى إسحاق بن يسار عن حدثه عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال إننا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين والناس يقتتلون إذ نظرت إلى مثل البجاد الأسود يهوى من السماء حتى وقع بيننا وبين القوم فإذا نمل مشور قد ملا الرادى فلم يكن إلا هزيمة القوم فما كنا نشك أنها الملائكة.

وقال سعيد بن السائب بن يسار عن أبيه قال: سمعت يزيد بن عامر السوائى وكان شهد حنيناً مع المشركين ثم أسلم بعد فكننا نسأله عن الرعب الذى ألقى الله فى قلوب المشركين يوم حنين فكان يأخذ الحصاة فيرمى بها فى الطست فيطن فيقول كنا نجد فى أجوافنا مثل هذا، وقد تقدم له شاهد من حديث يزيد بن أبى أسيد فوالله أعلم، وفى صحيح مسلم^(٢) عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق أنبأنا معمر عن همام قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم»

(١) صحيح: المسند (٤٣٢٤).

(٢) مسلم برقم (٥٢٣).

ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣٧﴾﴾ قد تاب الله على بقية هوازن وأسلموا وقدموا عليه مسلمين ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوما فعند ذلك خيرهم بين سبيهم وبين أموالهم فاختاروا سبيهم وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة، فرده عليهم وقسم الأموال بين الغانمين ونفل أناسا من الطلقاء لكي يتألف قلوبهم على الإسلام فأعطاهم مائة مائة من الإبل وكان من جملة من أعطى مائة مالك بن عوف النَّضْرِي واستعمله على قومه كما كان فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها:

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله في الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى ومتى تشأ يُخْبِرُكَ عما في غد
وإذا الكتيبة عَرَدَتْ أنيابها بالسّمهريّ وضرب كل مهند
فكانه ليث على أشباله وسط الهباءة خادر في مرصد

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٣٨﴾﴾
فَنِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿١٣٩﴾﴾

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين دينًا وذاتًا بنفى المشركين الذين هم نجس دينًا عن المسجد الحرام وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية وكان نزولها في سنة تسع ولهذا بعث رسول الله ﷺ علينا صحبة أبي بكر رضى الله عنهما عامئذ وأمره أن ينادى فى المشركين أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . فأتى الله ذلك وحكم به شرعًا وقدرًا .

وقال عبد الرزاق (١) : أخبرنا ابن جريج أخبرنى أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ إلا أن يكون عبدًا أو أحدًا من أهل الذمة . وقد روى مرفوعًا من وجه آخر فقال الإمام أحمد (٢) حدثنا حسن حدثنا شريك عن الأشعث يعنى ابن سوار عن الحسن عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل مسجدنا بعد عامنا هذا مشرك إلا أهل العهد وخدمكم » تفرد به الإمام أحمد مرفوعًا والموقوف أصح إسنادًا . وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعى ، كتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين وأتبع نهيه قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ .

وقال عطاء : الحرم كله مسجد لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ ودلت

(١) عبد الرزاق فى تفسيره (٢/ ٢٧١).

(٢) المسند (١٤٧٩٩)، قال الهيثمى فى المجمع (٤/ ١٠): فيه أشعث بن سوار وفيه ضعف، وقد وثق.

هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما دلت على طهارة المؤمن؛ لما ورد في الصحيح^(١) «المؤمن لا ينجس» وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم، وقال أشعث عن الحسن: من صافحهم فليتوضأ. رواه ابن جرير.

وقوله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال محمد بن إسحاق: وذلك أن الناس قالوا لتقطع عنا الأسواق ولتهلكن التجارة وليذهبن عنا ما كنا نصيب فيها من المرافق فنزلت ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من وجه غير ذلك ﴿إِنْ شَاءَ﴾ إلى قوله ﴿وَهُمْ صَاعِقُونَ﴾ أي: إن هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق فعوضهم الله بما قطع عنهم من أمر الشرك ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية، وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وغيرهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أي بما يصلحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ أي فيما يأمر به وينهى عنه لأنه الكامل في أفعاله وأقواله العادل في خلقه وأمره تبارك وتعالى ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة. فقال: ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِقُونَ﴾ فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ولا بما جاءوا به وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآبائهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه، لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ لأن جميع الأنبياء بشروا به وأمروا باتباعه فلما جاء وكفروا به وهو أشرف الرسل عليم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله. بل لحظوظهم وأهوائهم فلماذا لا يضعهم إيمانهم ببقية الأنبياء وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم، ولهذا قال: ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجا فلما استقرت جزيرة العرب أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى وكان ذلك في سنة تسع ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم فأوعبوا معه واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم وكان ذلك في عام جدب ووقت قحظ وحر وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك فنزل بها وأقام بها قريبا من عشرين يوما ثم استخار الله في الرجوع فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله تعالى.

وقد استدل بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب أو من أشبههم كالمجوس كما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر وهذا مذهب الشافعي وأحمد في المشهور عنه وقال أبو حنيفة رحمه الله. بل تؤخذ من جميع الأعاجم سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب.

وقال الإمام مالك: بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي ومجوسى ووثنى وغير ذلك ولما أخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا والله أعلم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَظُوتُوا الْجَزِيَّةَ﴾ أى إن لم يسلموا ﴿عَنْ يَدٍ﴾ أى عن قهر لهم وغلبة ﴿وَهُمْ صَائِرُونَ﴾ أى ذليلون حقيرون مهانون فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين بل هم أذلاء صغرة أشقياء كما جاء فى صحيح مسلم^(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدهم فى طريق فاضطروه إلى أضيقه».

ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه تلك الشروط المعروفة فى إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال: كتبت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين صالح نصارى من أهل الشام: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائعنا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث فى مدينتنا ولا فيما حولها ديرًا ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب منها ولا نحىي منها ما كان خططًا للمسلمين وألا نمنع كنائسنا أن يزلها أحد من المسلمين فى ليل ولا نهار وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم ولا نؤوى فى كنائسنا ولا منازلنا جاسوسًا ولا نكتم غشًا للمسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شركًا ولا ندعو إليه أحدًا ولا نمنع أحدًا من ذوى قرابتنا الدخول فى الإسلام إن أرادوه وأن نوقر المسلمين وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس ولا نتشبه بهم فى شيء من ملابسهم فى قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتنى بكناهم لا نركب السروج ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئًا من السلاح ولا نحمله معنا ولا نقش خواتيمنا بالعربية ولا نبيع الخمر وأن نجز مقادير رؤوسنا وأن نلزم زينا حيشما كنا وأن نشد الزناير على أوساطنا وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا وأن لا نظهر صليبنا ولا كتبنا فى شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نضرب نواقيسنا فى كنائسنا إلا ضربًا خفيًا وأن لا نرفع أصواتنا بالقراءة فى كنائسنا فى شيء من حضرة المسلمين ولا نخرج سعاين ولا باعوثًا ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران معهم فى شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين وأن نرشد المسلمين ولا نطلع عليهم فى منازلهم. قال فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه ولا نضرب أحدًا من المسلمين شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان فإن نحن خالفنا فى شيء مما شرطناه لكم ووظفنا على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق.



﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَنْ يُؤَفِّكُونَ ﴿٥١﴾ أَخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُءُوسَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مُبْحِنْتُهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٢﴾﴾

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقاتلتهم هذه المقالة الشنيعة والفرية على الله تعالى فأما اليهود فقالوا في العزيز: إنه ابن الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وذكر السدى وغيره أن الشبهة التي حصلت لهم في ذلك أن العملاقة لما غلبت على بني إسرائيل فقتلوا علماءهم وسبوا كبارهم بقى العزيز يبكي على بني إسرائيل وذهاب العلم منهم حتى سقطت جفون عينه فبينما هو ذات يوم إذ مر على جبانة وإذا امرأة تبكي عند قبر وهي تقول: وامطعماه واكاسياه فقال لها: ويحك من كان يطعمك قبل هذا؟ قالت: الله قال: فإن الله حى لا يموت، قالت يا عزيز فمن كان يعلم العلماء قبل بني إسرائيل؟ قال: الله. قالت: فلم تبكى عليهم؟ فعرف أنه شيء قد وعظ به ثم قيل له اذهب إلى نهر كذا فاغتسل منه وصل هناك ركعتين فإنيك ستلقى هناك شيئاً فما أطعمك فكله فذهب ففعل ما أمر به فإذا الشيخ فقال له: افتح فمك ففتح فمه فألقى فيه شيئاً كهيشة الجمره العظيمة ثلاث مرات فرجع عزيز وهو من أعلم الناس بالتوراة فقال: يا بني إسرائيل قد جتكم بالتوراة فقالوا يا عزيز ما كنت كذاباً فعمد فربط على أصبع من أصابعه قلما وكتب التوراة بأصبعه كلها فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء أخبروا بشأن عزيز فاستخرجوا النسخ التي كانوا أودعوها في الجبال وقابلوها بها فوجدوا ما جاء به صحيحاً فقال بعض جهلتهم: إنما صنع هذا لأنه ابن الله.

وأما ضلال النصارى في المسيح فظاهر، ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين فقال: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أى لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افتراءهم واختلاقهم ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ أى يشابهون ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أى من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء ﴿قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس: لعنهم الله ﴿أَنْ يُؤَفِّكُونَ﴾؟ أى كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل؟

وقوله: ﴿أَخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُءُوسَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير^(١) من طرق عن عدى بن حاتم رضى الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام وكان قد تنصر في الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاهما فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام وفى القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدى إلى المدينة وكان رئيساً فى قومه طيء وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدمه فدخل على رسول الله ﷺ وفى عتق عدى صليب من فضة فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿أَخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُءُوسَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم فقال: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم» وقال رسول الله ﷺ «يا عدى ما تقول؟ أيفرك أن يقال الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ ما يفرك؟، أيفرك أن يقال لا إله إلا الله؟ فهل تعلم من إله

(١) الترمذي (٣٠٩٥)، ابن جرير في تفسيره (١٠/١١٤).

إلا الله؟» ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق قال فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال «إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون» وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهَيْبَتْهُمْ أَزْيَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا، وقال السدي: استنصحو الرجال تركوا كتاب الله وراء ظهورهم ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَسْرَوْا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَجِدًّا﴾ أى الذى إذا حرم الشيء فهو الحرام وما حلله فهو الحلال وما شرعه اتبع وما حكم به نفذ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد لا إله إلا هو ولا رب سواه .

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَاهِمَ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾
 ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾
 ﴿٣٣﴾

يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ أى ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق بمجرد جدالهم وافتراءتهم فمثلهم فى ذلك كمثل من يريد أن يطفى شعاع الشمس أو نور القمر بنفخة وهذا لا سبيل إليه فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لا بد أن يتم ويظهر ولهذا قال تعالى مقابلا لهم فيما راموه وأرادوه: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ والكافر هو الذى يستر الشيء ويغطيه ومنه سمي الليل كافرًا لأنه يستر الأشياء والزراع كافرًا لأنه يغطى الحب فى الأرض كما قال ﴿أَعَجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ﴾ [الحديد: ٢٠] ثم قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ فالهدى هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع ودين الحق هى الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة فى الدنيا والآخرة .

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أى على سائر الأديان كما ثبت فى الصحيح^(١) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله زوى لى الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها»، وقال الإمام أحمد: «حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن محمد بن أبى يعقوب سمعت شقيق بن حيان يحدث عن مسعود بن قبيصة أو قبيصة بن مسعود يقول: صلى هذا الحى من محارب الصبح فلما صلوا قال شاب منهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها، وإن عمالها فى النار إلا من اتقى الله وأدى الأمانة»، وقال الإمام أحمد: «^(٢) حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان حدثنا سليم بن عامر عن تميم الدارى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزًا يعز الله به الإسلام وذلا يذل الله به الكفر» فكان تميم الدارى يقول: قد عرفت ذلك فى أهل بيتى لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ولقد أصاب من كان منهم كافرًا الذل والصغار والجزية .

(١) مسلم برقم (٢٨٨٩)، أبو داود (٤٢٥٢)، الترمذي (٢١٧٦)، من حديث ثوبان به .
 (٢) المسند (٢٢٥٩٩) .
 (٣) صحيح: المسند (١٦٥٠٩) .

وقال الإمام أحمد: ^(١) حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا الوليد بن مسلم حدثني ابن جابر سمعت سليم بن عامر قال سمعت المقداد بن الأسود يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز وبذل ذلك إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها، وإما يذلهم فيدينون لها» وفي المسند أيضًا ^(٢) حدثنا محمد بن أبي عدى عن ابن عون عن ابن سيرين عن أبي حذيفة عن عدى بن حاتم سمعه يقول: دخلت على رسول الله ﷺ فقال: «يا عدى أسلم تسلم» فقلت إني من أهل دين قال: «أنا أعلم بدينك منك» فقلت أنت أعلم بديني مني؟ قال: «نعم ألت من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك؟»

قلت: بلى! قال: «فإن هذا لا يحل لك في دينك» قال: فلم يعد أن قالها فتواضعت لها، قال: «أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام، تقول إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له وقد رمتهم العرب أتعرف الحيرة؟» قلت لم أرها وقد سمعت بها، قال: «فو الذي نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز» قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم كسرى بن هرمز، وليذلن المال حتى لا يقبله أحد».

قال عدى بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسى بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها. وقال مسلم: ^(٣) حدثنا أبو معن زيد بن يزيد الرقاشي حدثنا خالد بن الحارث حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن الأسود بن العلاء عن أبي سلمة عن عائشة رضی الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى» فقلت: يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله عز وجل «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ» إلى قوله: «وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» الآية، أن ذلك تام، قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عز وجل، ثم يبعث الله ريحًا طيبة فيتوفى كل من كان في قلبه مقال حبة خردل من إيمان فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم».

الحزب
٢٠
﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبِطْلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقِدُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٥﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قال السدي: الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى وهو كما قال فإن الأحبار هم علماء اليهود كما قال تعالى: «لَوْلَا يَتَّبِعُهُمُ الْرَبِّيُونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِيمَانُ وَأَكْبِهِمْ أَسْتَحْتَّ» [المائدة: ٦٣] والرهبان عباد النصارى والقسيسون علماءهم كما قال تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَنِيصُونَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ» [المائدة: ٨٢] والمقصود التحذير من علماء السوء وعباد الضلالة كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى. وفي

(٢) صحيح: المسند (١٨٨٨).

(١) صحيح: المسند (٢٣٣٠٢).

(٣) مسلم (٢٩٠٧).

الحديث الصحيح ^(١) «لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة» قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟» وفي رواية فارس والروم؟ قال: «فمن الناس إلا هؤلاء؟» والحاصل التحذير من التشبه بهم في أحوالهم وأقوالهم ولهذا قال تعالى: ﴿يَا كُفْرًا أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَبِعُدْوَتٍ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس يأكلون أموالهم بذلك كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجيء إليهم فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعاً منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات فأطفأها الله بنور النبوة وسلبهم إياها وعوضهم الذل والصغار وباءوا بغضب من الله تعالى .

وقوله تعالى: ﴿وَبِعُدْوَتٍ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق ويلبسون الحق بالباطل ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير وليسوا كما يزعمون بل هم دعاة إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون .

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس فإن الناس عالة على العلماء وعلى العباد وعلى أرباب الأموال فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس كما قال ابن المبارك:

وهل أفسد الدين إلا الملوكة وأحبار سوء ورهبانها

وأما الكنز فقال مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أنه قال: هو المال الذى لا لا تؤدي منه زكاة، وروى الثورى وغيره عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال: ما أدى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين وما كان ظاهراً لا تؤدي زكاته فهو كنز ^(٢)، وقد روى هذا عن ابن عباس وجابر وأبي هريرة موقوفاً ومرفوعاً، وقال عمر بن الخطاب نحوه أيما مال أدت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً فى الأرض، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكور به صاحبه وإن كان على وجه الأرض، وروى البخارى ^(٣) من حديث الزهرى عن خالد بن أسلم قال: خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال: هذا قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله طهرة للأموال، وكذا قال عمر بن عبد العزيز وعراك بن مالك: نسخها قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية [التوبة: ١٠٣] .

وقال سعيد بن محمد بن زياد عن أبي أمامة أنه قال: حلية السيوف من الكنز . ما أحدثكم إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ وقال الثورى عن أبي حصين عن أبي الضحى عن جعدة بن هبيرة عن على رضى الله عنه قال: أربعة آلاف فما دونها نفقة فما كان أكثر من ذلك فهو كنز وهذا غريب وقد جاء فى مدح الثقل من الذهب والفضة وذم التكثر منهما أحاديث كثيرة . ولنورد منها هنا طرفاً يدل على الباقي قال عبد الرزاق: أخبرنا الثورى أخبرنى أبو حصين عن أبي الضحى عن جعدة بن هبيرة عن على رضى الله عنه فى قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية . قال النبى ﷺ: «تباً للذهب تباً للفضة» يقولها ثلاثاً قال فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: فأى

(١) أخرجه البخارى (٣٤٥٦)، مسلم (٢٦٦٩). من حديث أبي سعيد الخدرى بنحوه .

(٢) رواه عبد الرزاق فى مصنفه (١٠٧/٤)، برقم (٧١٤١) عن عبيد الله به .

(٣) البخارى برقم (١٤٠٤) .

مال نتخذ؟ فقال عمر رضى الله عنه أنا أعلم لكم ذلك فقال: يا رسول الله إن أصحابك قد شق عليهم وقالوا: فأى المال نتخذ؟ قال: «لسانًا ذاكراً وقلبًا شاكراً وزوجة تعين أحدكم على دينه» .

(حديث آخر): قال الإمام أحمد^(١): حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة حدثني سالم بن عبد الله أخبرنا عبد الله بن أبي الهذيل حدثني صاحب لى أن رسول الله ﷺ قال «تَبًا لِلذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ» قال: فحدثني صاحبى أنه انطلق مع عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله قولك: «تَبًا لِلذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ» ماذا ندخر؟ قال رسول الله ﷺ: «لسانًا ذاكراً وقلبًا شاكراً وزوجة تعين على الآخرة» .

(حديث آخر): قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا وكيع حدثنا عبد الله بن عمرو بن مرة عن أبيه عن سالم بن أبي الجعد عن ثوبان قال: لما نزل في الذهب والفضة ما نزل قالوا: فأى المال نتخذ؟ قال عمر: فأننا أعلم لكم ذلك فأوضح على بغير فأدرکه وأنا فى أثره فقال: يا رسول الله أى المال نتخذ؟ قال: «ليتخذ أحدكم قلبًا شاكراً ولسانًا ذاكراً وزوجة تعين أحدكم على أمر الآخرة» ورواه الترمذى وابن ماجه^(٣) من غير وجه عن سالم بن أبي الجعد وقال الترمذى حسن، وحكى عن البخارى أن سالم لم يسمعه من ثوبان قلت: ولهذا رواه بعضهم عنه مرسلًا، والله أعلم.

(حديث آخر): قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبى حدثنا حميد بن مالك حدثنا يحيى بن يعلى المحارىبى حدثنا أبى حدثنا غيلان بن جامع المحارىبى عن عثمان أبى اليقظان عن جعفر بن أبى لياس عن مجاهد عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ الآية، كبر ذلك على المسلمين وقالوا: ما يستطيع أحد منا أن يترك لولده مالا يبقى بعده فقال عمر: أنا أفرج عنكم فانطلق عمر واتبعه ثوبان فأتى النبى ﷺ فقال: يا نبى الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم وإنما فرض الموارث من أموال تبقى بعدكم» قال فكبر عمر ثم قال له النبى ﷺ: «ألا أخبرك بخير ما يكتز المرأة الصالحة التى إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته» ورواه أبو داود والحاكم فى مستدرکه^(٤) وابن مردويه من حديث يحيى بن يعلى به وقال الحاكم: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه .

(حديث آخر): قال الإمام أحمد^(٥): حدثنا روح حدثنا الأوزاعى عن حسان بن عطية قال: كان شداد بن أوس رضى الله عنه فى سفر فنزل منزلا فقال لغلामه اتتنا بالشفرة نعبث بها فأنكرت عليه فقال: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها وأزمرها غير كلمتى هذه فلا تحفظوها على واحفظوا ما أقول لكم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كتز الناس الذهب والفضة فاكترزوا هؤلاء الكلمات: اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر والعزيمة على الرشد وأسألك شكر نعمتك وأسألك حسن

(١) حسن: المسند (٢٢٥٩١).

(٢) حسن: الترمذى (٣٠٩٤)، ابن ماجه (١٨٥٦).

(٣) ضعيف: أبو داود (١٦٦٤)، والحاكم (٣٦٣/٢)، برقم (٣٢٨١)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، انظر ضعيف الجامع رقم (١٦٤٣).

(٤) حسن لغيره: المسند (١٦٦٦٥).

(٥) حسن: المسند (٢١٩٣١).

عبادتك وأسألك قلبًا سليماً وأسألك لسانًا صادقًا وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب».

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أى يقال لهم هذا الكلام تبيكتنا وتقريمتنا وتهكما كما فى قوله ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٨-٤٩] أى هذا بذاك وهذا الذى كنتم تكتزون لأنفسكم ولهذا يقال من أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله عذب به وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال أثر عندهم من رضا الله عنهم عذبوا بها كما كان أبو لهب لعنه الله جاهداً فى عداوة الرسول ﷺ وامرأته تعينه فى ذلك كانت يوم القيامة عوناً على عذابه أيضاً ﴿فِي جِيدِهَا﴾ [المسد: هـ] أى عنقها ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: هـ] أى تجمع من الحطب فى النار وتلقى عليه ليكون ذلك أبلغ فى عذابه ممن هو أشفق عليه كان فى الدنيا كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأموال على أربابها كانت أضمر الأشياء عليهم فى الدار الآخرة فيحتمى عليها فى نار جهنم وناهيك بحرما فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. قال سفيان عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود: والله الذى لا إله غيره لا يكوى عبد يكتز فيمس ديناراً ديناراً ولا درهم درهمين ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حذته، وقد رواه ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعاً ولا يصح رفعه والله أعلم.

وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبىه قال: بلغنى أن الكنز يتحول يوم القيامة شجاعاً يتبع صاحبه وهو يفر منه ويقول: أنا كنتك لا يدرك منه شيئاً إلا أخذه. وقال الإمام أبو جعفر ابن جرير ^(١) حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة عن سالم بن أبى الجعد عن معدان بن أبى طلحة عن ثوبان أن رسول الله ﷺ كان يقول «من ترك بعده كنزاً مُثَّلَ له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيتان يتبعه ويقول: ويلك ما أنت؟ فيقول: أنا كنتك الذى تركته بعدك ولا يزال يتبعه حتى يلقيه يده فيقضهما ثم يتبعها سائر جسده» ورواه ابن حبان فى صحيحه ^(٢) من حديث يزيد عن سعيد به وأصل هذا الحديث فى الصحيحين ^(٣) من رواية أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه، وفى صحيح مسلم ^(٤) من حديث سهيل بن أبى صالح عن أبىه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل لا يودى زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين الناس ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» وذكر تمام الحديث. وقال البخارى ^(٥) فى تفسير هذه الآية حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا جرير عن حصين عن زيد بن وهب قال: مررت على أبى ذر بالربذة فقلت ما أنزلك بهذه الأرض؟.

قال كسنا بالشام فقرات ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقَرُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبِئْسَ لَهُمْ

(١) صحيح: تفسير الطبري (١٠/١٢٤).

(٢) صحيح: ابن حبان (٨/٤٩)، برقم (٣٢٥٧)، انظر: صحيح الترغيب والترهيب رقم (١١٣٦).

(٣) البخاري برقم (٤٦٥٩).

(٤) مسلم برقم (٩٨٧).

(٥) البخاري برقم (٤٦٦١).

يَكْدَابٍ أَلِيْرٍ ﴿ فقال معاوية ما هذا فينا ما هذه إلا في أهل الكتاب، قال: قلت إنها لفينا وفيهم ورواه ابن جرير ^(١) من حديث عثرب بن القاسم عن حصين عن زيد بن وهب عن أبي ذر رضى الله عنه فذكره وزاد فارتفع في ذلك بينى وبينه القول فكتب إلى عثمان يشكونى فكتب إليّ عثمان أن أقبل إليه قال فأقبلت إليه فلما قدمت المدينة ركبنى الناس كأنهم لم يرونى قبل يومئذ فشكوت ذلك إلى عثمان فقال لى: تنح قريباً قلت: والله لن أدع ما كنت أقول.

(قُلْتُ) كان من مذهب أبي ذر رضى الله عنه تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال وكان يفتى بذلك ويحثهم عليه ويأمرهم به ويغلظ فى خلافه فنهاه معاوية فلم ينته فخشى أن يضر الناس فى هذا فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان وأن يأخذ الذى يأخذه إليه فاستقدمه عثمان إلى المدينة وأنزله بالريذة وحده وبها مات رضى الله عنه فى خلافة عثمان. وقد اختبره معاوية رضى الله عنه وهو عنده هل يوافق عمله قوله؟ فبعث إليه بألف دينار ففرقها من يومه ثم بعث إليه الذى أتاه بها فقال إن معاوية إنما بعثنى إلى غيرك فأخطأت فهات الذهب فقال ويحك إنها خرجت ولكن إذا جاء مالى حاسبتاك به وهكذا روى على بن أبى طلحة عن ابن عباس أنها عامة.

وقال السدى: هى فى أهل القبلة وقال الأحنف بن قيس قدمت المدينة فينا أنا فى حلقة فيها ملا من قريش إذ جاء رجل أحسن الثياب أحسن الجسد أحسن الوجه فقام عليهم فقال: بشر الكانزين برضف يحمى عليه فى نار جهنم فيوضع على حلمة ثدى أحدهم حتى يخرج من نفص كتفه ويوضع على نفص كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل، قال فوضع القوم رؤوسهم فما رأيت أحدًا منهم رجع إليه شيئًا قال وأدبر فاتبعته حتى جلس إلى سارية فقلت: ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم، فقال: إن هؤلاء لا يعلمون شيئًا، وفى الصحيح ^(٢) أن رسول الله ﷺ قال لأبى ذر: «ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهبًا يمر عليه ثلاثة أيام وعندى منه شيء إلا دينار أرصده لدين» فهذا والله أعلم هو الذى حدا بأبى ذر على القول بهذا.

وقال الإمام أحمد ^(٣) حدثنا عفان حدثنا همام حدثنا قتادة عن سعيد بن أبى الحسن عن عبد الله بن الصامت رضى الله عنه أنه كان مع أبى ذر فخرج عطاؤه ومعه جارية فجعلت تقضى حوائجه ففضلت معها سبعة فأمرها أن تشتري به فلوسًا قال: قلت لو ادخرته لحاجة تنوبك وللضيف ينزل بك قال إن خليلى عهد إلى أن أيعا ذهب أو فضة أو كىء عليه فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه فى سبيل الله عز وجل. ورواه ^(٤) عن يزيد عن همام به وزاد: إفراغًا.

وقال الحافظ ابن عساكر بسنده إلى أبى بكر الشبللى فى ترجمته عن محمد بن مهدى حدثنا عمرو بن أبى سلمة عن صدقة بن عبد الله عن طلحة بن زيد عن أبى فروة الرهاوى عن عطاء عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللقى الله فقيرًا، ولا تلقه غنيًا» قال: يا رسول الله كيف

(١) صحيح: تفسير الطبري (١٠/١٢١).

(٢) البخاري برقم (١٤٠٧)، مسلم برقم (٩٢٢) من حديث الأحنف بن قيس، وثبت نحوه من حديث أبى هريرة، رواه البخاري (٢٣٨٩)، ومسلم (٩٩١).

(٤) المسند (٢٠٩٥٠).

(٣) صحيح: المسند (٢٠٨٧٦).

لى بذلك؟ قال: «ما سئلت فلا تمنع، وما رزقت فلا تختبئ» قال: يا رسول الله كيف لى بذلك؟ قال رسول الله ﷺ: «هو ذاك وإلا فالنار»^(١) إسناده ضعيف.

وقال الإمام أحمد^(٢) حدثنا عفان حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا عتينة عن بريد بن الصرم قال سمعت علياً رضى الله عنه يقول مات رجل من أهل الصفة وترك دينارين أو درهمين فقال رسول الله ﷺ: «كيتان، صلوا على صاحبكم» وقد روى هذا من طرق آخر^(٣)، وقال قتادة عن شهر بن حوشب عن أبى أمامة صدى بن عجلان قال: مات رجل من أهل الصفة فوجد فى مئزره دينار فقال رسول الله ﷺ «كبة» ثم توفى رجل آخر فوجد فى مئزره ديناران فقال رسول الله ﷺ «كيتان» وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الفراديسى حدثنا معاوية بن يحيى الاطرابلسى حدثنى أرطاة حدثنى أبو عامر الهوزنى سمعت ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل يموت وعنده أحمر أو أبيض إلا جعل الله بكل قيراط صفحة من نار يكوى بها من قدمه إلى ذقنه» وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمود بن خدّاش حدثنا سيف بن محمد الثورى حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يوضع الدينار على الدينار، ولا الدرهم على الدرهم ولكن يوسع جلده فيكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكزون» سيف هذا كذاب متروك.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفِئْمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُفْتِنُوكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قال الإمام أحمد^(٤) حدثنا إسماعيل أخبرنا أيوب أخبرنا محمد بن سيرين عن أبى بكره أن النبى ﷺ خطب فى حجته فقال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان» ثم قال «ألا أى يوم هذا؟» قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا بلى ثم قال: «أى شهر هذا؟» قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا بلى ثم قال: «أى بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: «أليس البلدة؟» قلنا بلى قال: «فإن دماءكم وأموالكم - وأحسبه قال - وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا. وستلقون ربكم فىسألکم عن أعمالکم ألا لا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض ألا هل بلغت؟ ألا ليلبلغ الشاهد منكم الغائب فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من يسمعه» رواه

(١) ضعيف: أورده الهيثمي فى مجمع الزوائد (٣/١٢٥)، عن بلال، وقال: رواه الطبراني فى الكبير، وفيه طلحة بن زيد القرشي وهو ضعيف. اهـ.

(٢) المسند (٧٩٠)، قال الهيثمي فى المجمع (١٠/٢٤٠)، فيه عتية الضرير وهو مجهول، وبقيّة رجاله وتقوا.

(٣) حسن لغيره: المسند (٢١٦٧٠).

(٤) صحيح: المسند (١٩٨٧٣).

البخاري^(١) في التفسير وغيره. ومسلم^(٢) من حديث أيوب عن محمد وهو ابن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه به، وقد قال ابن جرير^(٣) حدثنا معمر بن محمد حدثنا روح حدثنا أشعث عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم: ثلاثة متواليات - ذو القعدة وذو الحجة والمحرم - ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» ورواه البزار عن محمد بن معمر به. ثم قال لا يروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه، وقد رواه ابن عون وقره^(٤) عن ابن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه به، وقال ابن جرير^(٥) أيضًا حدثني موسى بن عبد الرحمن المسروقي حدثنا زيد بن حباب حدثنا موسى بن عبيدة الريذي حدثني صدقة بن يسار عن ابن عمر قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمنى في أوسط أيام التشريق فقال «أيها الناس إن الزمان قد استدار فهو اليوم كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم أولهن رجب مضر بين جمادى وشعبان، وذو القعدة وذو الحجة والمحرم» وروى ابن مردويه من حديث موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر مثله أو نحوه وقال حماد بن سلمة حدثني علي بن زيد عن أبي حرة حدثني الرقاشي عن عمه وكانت له صحبة قال: كنت آخذًا بزمام ناقة رسول الله ﷺ في أوسط أيام التشريق أذود الناس عنه فقال رسول الله ﷺ: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم فلا تظلموا فيهن أنفسكم» وقال سعيد بن منصور حدثنا أبو معاوية عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله «يُنَهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ» قال محرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة. وقوله ﷺ في الحديث: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» تقرير منه صلوات الله وسلامه عليه، وتشبيته للأمر على ما جعله الله تعالى، في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نسيء ولا تبديل كما قال في تحريم مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة» وهكذا قال ههنا «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» أي الأمر اليوم شرعًا كما ابتدئ الله ذلك في كتابه يوم خلق السموات والأرض.

وقد قال بعض المفسرين والمتكلمين على هذا الحديث إن المراد بقوله «قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» أنه اتفق أن حج رسول الله ﷺ في تلك السنة في ذي الحجة وأن العرب قد كانت نسأت النسيء يحجون في كثير من السنين بل أكثرها في غير ذي الحجة وزعموا أن حجة الطديق في سنة تسع كانت في ذي القعدة وفي هذا نظر كما سنبينه إذا تكلمنا عن النسيء وأغرب منه ما رواه الطبراني عن بعض السلف في جملة حديث أنه اتفق حج المسلمين واليهود والنصارى في يوم

(٢) مسلم برقم (١٦٧٩).

(٤) مسند البزار (٨٦/٩)، برقم (٣٧١٧).

(١) البخاري برقم (٤٤٠٦).

(٣) الطبري في تفسيره (١٠/١٢٥).

(٥) تفسير الطبري (١٠/١٢٤-١٢٥).

واحد وهو يوم النحر عام حجة الوداع والله اعلم .

(فصل) ذكر الشيخ علم الدين السخاوى فى جزء جمعه سماه «المشهور فى أسماء الأيام والشهور» أن المحرم سمي بذلك لكونه شهرًا محرمًا، وعندى أنه سمي بذلك تأكيدًا لتحريمه لأن العرب كانت تتقلب به فتحله عاما وتحرمه عاما قال ويجمع على محرمات ومحارم ومحاريم، وصفر سمي بذلك لخلو بيوتهم منهم حين يخرجون للقتال والأسفار يقال صفر المكان إذا خلا ويجمع على أصفار كجمل وأجمال، وشهر ربيع الأول سمي بذلك لارتباعهم فيه والارتباع الإقامة فى عمارة الربيع ويجمع على أربعاء كنصيب وأنصباء، وعلى أربعة كرجيف وأرغفة، وربيع الآخر كالأول. وجمادى سمي بذلك لجمود الماء فيه، قال وكانت الشهور فى حسابهم لا تدور، وفى هذا نظر إذ كانت شهورهم منوطة بالأهلة ولا بد من دورانها فلعلهم سموه بذلك أول ما سمي عند جمود الماء فى البرد، كما قال الشاعر:

وليلة من جمادى ذات أندية لا يبصر العبد فى ظلماتها الطَّبَا
لا ينبح الكلب فيها غيرَ واحدة حتى يلف على خرطومه الذنبا

وتجمع على جماديات كحبارى وحباريات وقد يذكر ويؤنث فيقال جمادى الأولى والأولى وجمادى الآخر والأخرة. رجب من الترجيب وهو التعظيم ويجمع على أرجاب ورجاب ورجبات. شعبان من تشعب القبائل وتفرقها للغارة ويجمع على شعابين وشعبانات. رمضان من شدة الرمضاء وهو الحر يقال رمضت الفصال إذا عطشت ويجمع على رمضانات ورماضين وأرمضة قال: وقول من قال إنه اسم من أسماء الله خطأ لا يعرج عليه ولا يلتفت إليه، قلت: قد ورد فيه حديث ولكنه ضعيف وبيته فى أول كتاب الصيام. شوال من شالت الإبل بأذنانها للطراق قال ويجمع على شواول وشواويل وشوالات. القعدة بفتح القاف، قلت وكسرهما، لعودهم فيه عن القتال والترحال ويجمع على ذوات القعدة. الحجة بكسر الحاء قلت وفتحها سمي بذلك لإقامتهم الحج فيه، ويجمع على ذوات الحجة، أسماء الأيام أولها الأحد ويجمع على آحاد وأوحاد ووحود، ثم يوم الاثنين ويجمع على اثنين، الثلاثاء يمد ويذكر ويؤنث ويجمع على ثلاثاوات وأثالث، ثم الأربعاء بالمد ويجمع على أربعاوات وأربيع والخميس يجمع على أخمسة وأخامس ثم الجمعة بضم الميم وإسكانها وفتحها أيضًا ويجمع على جمع وجمعات، السبت مأخوذ من السبت وهو القطع لانتهاه العدد عنده وكانت العرب تسمى الأيام أول ثم أهون ثم جبار ثم دبار ثم مؤنس ثم العروبة ثم شيار، قال الشاعر من العرب العرباء العاربة المتقدمين:

أرجى أن أعيش وإن يومي بأول أو بأهون أو جبار
أو التالى دبار فإن أفته فمؤنس أو عروبة أو شيار

وقوله تعالى: ﴿مِنهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾ فهذا مما كانت العرب أيضًا فى الجاهلية تحرمه وهو الذى كان عليه جمهورهم إلا طائفة منهم يقال لهم: البسل كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر تعمقًا وتشديدًا، وأما قوله «ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان» فإنما أضافه إلى مضر ليبين صحة قولهم فى رجب أنه الشهر الذى بين جمادى وشعبان لا كما كانت تظنه ربعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذى بين شعبان وشوال وهو رمضان اليوم فبين ﷺ أنه

رجب مضر لا رجب ربيعة، وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة ثلاثة سرد وواحد فرد، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة فحرم قبل شهر الحج شهر وهو ذو القعدة لأنهم يقعدون فيه عن القتال وحرم شهر ذى الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشغلون بأداء المناسك وحرم بعده شهر آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى نائي أقصى بلادهم آمنين، وحرم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتماد به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً.

وقوله: ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْهَيْنَا عَنْ آيَاتِنَا﴾ أى هذا هو الشرع المستقيم من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم والحذو بها على ما سبق في كتاب الله الأول وقال تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ أى فى هذه الأشهر المحرمة لأنها أكد وأبلغ فى الإثم من غيرها كما أن المعاصى فى البلد الحرام تضاعف لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُدْرِ فِيهِ بِالْحَكْمِ يَظْلِمِ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] وكذلك الشهر الحرم تغلظ فيه الآثام، ولهذا تغلظ فيه الدية فى مذهب الشافعى وطائفة كثيرة من العلماء، وكذا فى حق من قتل فى الحرم أو قتل ذا محرم، وقال حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس فى قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ قال: فى الشهور كلها.

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ الآية. ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ فى كلهن ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حراما وعظم حرمتهن وجعل الذنب فيهن أعظم والعمل الصالح والأجر أعظم.

وقال قتادة فى قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ إن الظلم فى الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزراً من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيما ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء، وقال إن الله اصطفى صفايا من خلقه. اصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس رسلا واصطفى من الكلام ذكره، واصطفى من الأرض المساجد. واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم واصطفى من الأيام يوم الجمعة واصطفى من الليالى ليلة القدر فعظموا ما عظم الله. فإنما يعظم الأمور ما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل وقال الثورى عن قيس بن مسلم عن الحسن بن محمد بن الحنفية بأن لا تحرموهن كحرمتهن.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ أى لا تجعلوا حرامها حلالا ولا حلالها حراما كما فعل أهل الشرك فإنما النسء الذى كانوا يصنعون من ذلك زيادة فى الكفر ﴿يُضَلُّ بِهَ الْبَلِيغُ كَذْرًا﴾ الآية [التوبة: ٣٧]، وهذا القول اختيار ابن جرير.

وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ أى جميعكم ﴿كَمَا يَنْبِئُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أى جميعهم ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وقد اختلف العلماء فى تحريم ابتداء القتال فى الشهر الحرم هل هو منسوخ أو محكم؟ على قولين: (أحدهما) وهو الأشهر أنه منسوخ لأنه تعالى قال ههنا ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ وأمر بقتال المشركين، وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمراً عاماً فلو كان محرماً فى الشهر الحرم لأوشك أن يقيد بانسلاخها ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف فى شهر حرام وهو ذو القعدة كما ثبت فى الصحيحين أنه خرج إلى هوازن فى شوال فلما كسرهم واستفأ أموالهم ورجع فلهم فلجثوا إلى الطائف عمد إلى الطائف فحاصروهم أربعين يوماً وانصرف ولم يفتتحها فثبت أنه

حاصر في الشهر الحرام والقول الآخر أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا مَحْلُومًا سَعَتِ اللَّهُ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢] وقال: ﴿الشَّهْرَ الْحَرَامَ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِمَاصٌ مَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ الآية [البقرة: ١٩٤]، وقال ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ الآية [التوبة: ٥]، وقد تقدم أنها الأربعة المقررة في كل سنة لا أشهر التسيير على أحد القولين. وأما قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ فيحتمل أنه منقطع عما قبله وأنه حكم مستأنف ويكون من باب التهيج والتحفيز أى كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم أيضًا لهم إذا حاربتموهم وقاتلوهم بنظير ما يفعلون، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداية منهم كما قال تعالى: ﴿الشَّهْرَ الْحَرَامَ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِمَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقال تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ كُنُوزِهِمُ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهَا فَإِن قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] الآية، وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام فإنه من تمتة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف فإنهم هم الذين ابتدءوا القتال وجمعوا الرجال ودعوا إلى الحرب والنزال فعندها قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدم فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم فنالوا من المسلمين وقتلوا جماعة، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريبًا من أربعين يومًا، وكان ابتداءه في شهر حلال ودخل الشهر الحرام فاستمر فيه أيامًا ثم قفل عنهم لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء، وهذا أمر مقرر وله نظائر كثيرة والله أعلم، ولنذكر الأحاديث الواردة في ذلك وقد حررنا ذلك في السيرة والله أعلم.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحَكِّرُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾﴾

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله، فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم وتأخيره إلى صفر فيحلون الشهر الحرام ويحرمون الشهر الحلال ليواطئوا عدة الأشهر الأربعة كما قال شاعرهم وهو عمير بن قيس المعروف بجذل الطعان:

لقد علمت معدّ أن قومي كرام الناس إن لهم كراما
ألسنا الناسئين على معدّ شهور الحل نجعلها حراما
فأى الناس لم ندرك بوتر وأى الناس لم نسلك لجاما

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ قال النسيء أن جنادة بن عوف بن أمية الكناني كان يوافق الموسم في كل عام وكان يكنى أبا ثمامة فينادى ألا إن أبا

ثمامة لا يحاب ولا يعاب ألا وإن صفر العام الأول العام حلال فيحله للناس فيحرم صفرًا عاما ويحرم المحرم عاما فذلك قول الله ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿الْكَافِرِينَ﴾، وقوله ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ يقول: يتركون المحرم عاما وعاما يحرمونه، وروى العوفي عن ابن عباس نحوه، وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد كان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حمار له فيقول: يا أيها الناس: إني لا أعاب ولا أحاب ولا مرد لما أقول، إنا قد حرمتنا المحرم وأخرنا صفر. ثم يجيء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته ويقول إنا قد حرمتنا صفرًا وأخرنا المحرم فهو قوله ﴿لِيُؤْطِقُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قال يعنى الأربعة فيحلوا ما حرم الله بتأخير هذا الشهر الحرام، وروى عن أبي وائل والضحاك وقتادة نحو هذا، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ الآية. قال هذا رجل من بني كنانة يقال له القلمس وكان في الجاهلية وكانوا في الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض في الشهر الحرام يلقي الرجل قاتل أبيه ولا يمد إليه يده، فلما كان هو قال اخرجوا بنا قالوا له هذا المحرم قال ننسئه العام هما العام صفران، فإذا كان العام القابل قضينا جعلناهما محرمين، قال ففعل ذلك فلما كان عام قابل قال لا تغزوا في صفر حرموه مع المحرم هما محرمان، فهذه صفة غريبة في النسئ وفيها نظر لأنهم في عام إنما يحرمون على هذا ثلاثة أشهر فقط وفي العام الذي يليه يحرمون خمسة أشهر فأين هذا من قوله تعالى: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْطِقُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ وقد روى عن مجاهد صفة أخرى غريبة أيضًا فقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ الآية، قال فرض الله عز وجل الحج في ذى الحجة، قال: وكان المشركون يسمون الأشهر: ذا الحجة والمحرم وصفر، وربيع الأول وربيع، وجمادى، وجمادى، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوالاً، وذا القعدة، وذا الحجة يحججون فيه مرة أخرى، ثم يسكتون عن المحرم ولا يذكرونه ثم يعودون فيسمون صفرًا صفرًا، ثم يسمون رجبًا جمادى الآخرة، ثم يسمون شعبان رمضان، ثم يسمون شوالا رمضان، ثم يسمون ذا القعدة شوالاً، ثم يسمون ذا الحجة ذا القعدة، ثم يسمون المحرم ذا الحجة فيحججون فيه واسمه عندهم ذو الحجة.

ثم عادوا بمثل هذه الصفة فكانوا يحججون في كل عام شهرين حتى إذا وافق حجة أبي بكر الآخر من العامين في ذى القعدة، ثم حج النبي ﷺ حجته التي حج فوافق ذى الحجة فذلك حين يقول النبي ﷺ في خطبته: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» وهذا الذي قاله مجاهد فيه نظر أيضًا وكيف تصح حجة أبي بكر وقد وقعت في ذى القعدة وأنى هذا؟.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ لِلنَّاسِ أَنَّ أَقْرَبَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْحُجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ الآية [التوبة: ٣] وإنما نودي بذلك في حجة أبي بكر فلو لم تكن في ذى الحجة لما قال تعالى: ﴿يَوْمَ الْحُجِّ الْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: ٣] ولا يلزم من فعلهم النسئ هذا الذي ذكره من دوران السنة عليهم وحجهم في كل شهر عامين فإن النسئ حاصل بدون هذا فإنهم لما كانوا يحلون شهر المحرم عاما يحرمون عوضه صفرًا وبعده ربيع وربيح إلى آخر السنة بحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها ثم في السنة الثانية يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه وبعده صفر وربيح إلى آخرها ف ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْطِقُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي في تحريم أربعة أشهر من السنة إلا

أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية وهو المحرم وتارة ينسئونهم إلى صفر أى يؤخرونه وقد قدمنا الكلام على قوله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم ثلاث متوالية: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر» أى إن الأمر فى عدة الشهور وتحريم ما هو محرم منها على ما سبق فى كتاب الله من العدد والتوالى لا كما تعتمدة جهلة العرب من فصلهم تحريم بعضها بالنسبة عن بعض والله أعلم وقال ابن أبى حاتم (١):

حدثنا صالح بن بشر بن سلمة الطبرانى حدثنا مكى بن إبراهيم حدثنا موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أنه قال: «وقف رسول الله ﷺ بالعقبة فاجتمع إليه من شاء الله من المسلمين فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال: «وإنما النسب من الشيطان زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما» فكانوا يحرمون المحرم عاما ويستحلون صفر ويستحلون المحرم وهو النسب».

وقد تكلم الإمام محمد بن إسحاق على هذا فى كتاب السيرة كلاما جيدا مفيدا حسنا فقال: كان أول من نسأ الشهور على العرب فأحل منها ما حرم الله وحرم منها ما أحل الله عز وجل القلمس وهو حذيفة بن عبد فقيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان: ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد ثم من بعد عباد ابنه قلع بن عباد ثم ابنه أمية بن قلع ثم ابنه عوف بن أمية ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف وكان آخرهم وعليه قام الإسلام فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه فقام فيهم خطيبا فحرم رجبا وذا القعدة وذا الحجة ويحل المحرم عاما ويجعل مكانه صفر ويحرمه عاما ليواطىء عدة ما حرم الله فيحل ما حرم الله يعنى ويحرم ما أحل الله. والله أعلم.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ
أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ
﴿١٧﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا بَعْدُ بِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلِيمٌ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨﴾﴾

هذا شروع فى عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك حين طابت شمار والظلال فى شدة الحر وحمارة القيظ فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى إذا دعيتم إلى الجهاد فى سبيل الله ﴿أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أى تكاسلتم وملتم إلى المقام فى الدعة والخفض وطيب شمار ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾؟ أى ما لكم فعلتم هكذا أرضى منكم بالدنيا بدلا من الآخرة؟ ثم زهد تبارك وتعالى فى الدنيا، ورجب فى الآخرة فقال ﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

كما قال الإمام أحمد (٢): حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا حدثنا إسماعيل بن أبى خالد عن قيس

(١) ضعيف: تفسير ابن أبى حاتم (١٠٠١٩/٦)، فيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف.

(٢) صحيح: المسند (١٧٥٤٧)، (١٧٥٥٣).

عن المستورد أخى بنى فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليم فليظنر بم ترجع؟» وأشار بالسبابة انفراد بإخراجه مسلم^(١). وروى ابن أبى حاتم^(٢) حدثنا بشر بن مسلم بن عبد الحميد الحمصى بحمص حدثنا الربيع بن روح حدثنا محمد بن خالد الوهيبى حدثنا زياد يعنى الجصاص عن أبى عثمان قال: قلت: يا أبا هريرة سمعت من إخوانى بالبصرة أنك تقول: سمعت نبى الله ﷺ يقول «إن الله يجزى بالحسنة ألف ألف حسنة» قال أبو هريرة: بل سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الله يجزى بالحسنة ألفى ألف حسنة» ثم تلا هذه الآية ﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ فالدنيا ما مضى منها وما بقى منها عند الله قليل. وقال الثورى عن الأعمش فى الآية ﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال: كزاد الراكب.

وقال عبد العزيز بن أبى حازم عن أبيه: لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة. قال: اتتوني بكفنى الذى أكفن فيه أنظر إليه فلما وضع بين يديه نظر إليه فقال: أما لى من كبير ما أخلف من الدنيا إلا هذا؟ ثم ولى ظهره فبكى وهو يقول أف لك من دار إن كان كثير لقليلاً، وإن كان قليل لقصيراً، وإن كنا منك لفى غرور. ثم تواعد تعالى على ترك الجهاد فقال: ﴿إِلَّا تَتَّبِعُوا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب فتثاقفوا عنه فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم، ﴿وَسَيَّبِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أى لنصرة نبيه وإقامة دينه كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَتَّوَلَّوْا يَسْتَبَدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أُمَّتَكُمُ﴾ [محمد: ٣٨] ﴿وَلَا تَصْرُوهُ شَيْئًا﴾ أى ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد، ونكولكم وتثاقفكم عنه ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم، وقد قيل إن هذه الآية وقوله: ﴿اتَّبِعُوا حَقًّا وَبِرًّا﴾ [التوبة: ٤١] وقوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَن حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠] إنهن منسوخات بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْتَفِرُّوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢] روى هذا عن ابن عباس وعكرمة والحسن، وزيد بن أسلم ورده ابن جرير وقال: إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الجهاد فتعين عليهم ذلك فلو تركوه لموقبوا عليه وهذا له اتجاه والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

﴿إِلَّا تَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ، لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعًا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُشُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَصْرُوهُ﴾ أى تنصروا رسوله فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه كما تولى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ أى عام الهجرة لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه فخرج منهم هارياً بصحبة صديقه وصاحبه أبى بكر بن أبى قحافة فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا فى آثارهم ثم يسيرا نحو المدينة فجعل أبو بكر رضى الله عنه يجزع أن يطلع عليهم أحد فيخلص إلى رسول الله ﷺ منهم أذى فجعل النبى ﷺ يسكنه ويشبهه ويقول: «يا أبا بكر ما

(٢) تفسير ابن أبى حاتم (٦/١٠٠٣٠).

(١) مسلم برقم (٢٨٥٨).

ظنك باثنين الله ثالثهما» كما قال الإمام أحمد^(١) حدثنا عفان حدثنا همام أنبأنا ثابت عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه قال: فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما» أخرجاه في الصحيحين^(٢)، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ أَبِي بَكْرٍ أَي تَأْيِيدَهُ وَنَصَرَهُ عَلَيْهِ أَي عَلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي أَشْهُرِ الْقَوْلِينَ وَقِيلَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ، وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ قَالُوا: لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمْ تَزَلْ مَعَهُ سَكِينَةٌ وَهَذَا لَا يَنَافِي تَجَدُّدَ سَكِينَةِ خَاصَّةً بِتِلْكَ الْحَالِ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَيْدِيَهُمْ يُخْشَوْنَ لَمَّا تَرَوْهَا﴾ أَي: الْمَلَائِكَةَ ﴿وَيَمَكَّلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَسْفَلًا وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَّا﴾ .

قال ابن عباس يعني بكلمة الذين كفروا الشرك وكلمة الله هي لا إله إلا الله . وفي الصحيحين^(٣) عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاقل حمية ويقاقل رياء أى ذلك فى سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو فى سبيل الله» وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أى فى انتقامه وانتصاره، منيع الجناح لا يضام من لاذ بيباه، واحتمى بالتمسك بخطابه ﴿حَكِيمٌ﴾ فى أقواله وأفعاله .

﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

قال سفيان الثوري عن أبيه عن أبي الضحى مسلم بن صبيح: هذه الآية ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أول ما نزل من سورة براءة وقال معتمر بن سليمان عن أبيه قال: زعم حضرمي أنه ذكر له أن ناسًا كانوا عسى أن يكون أحدهم عليلاً وكبيراً فيقول: إني لا أتم، فأنزل الله ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ الآية، أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب وحتم على المؤمنين فى الخروج معه على كل حال فى المنشط والمكره والعسر واليسر فقال ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ .

وقال على بن زيد عن أنس عن أبي طلحة: كهولا وشباباً ما أسمع الله عذر أحد ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قتل، وفى رواية قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فقال أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباناً جهزوني يا بنى، فقال بنوه يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ومع أبى بكر حتى مات ومع عمر حتى مات فنحن نغزو عنك فأبى فركب البحر فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفونوه بها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير فدفنوه فيها وهكذا روى عن ابن عباس وعكرمة وأبى صالح والحسن البصرى وشمر بن عطية ومقاتل بن حيان والشعبي وزيد بن أسلم أنهم قالوا فى تفسير هذه الآية ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قالوا: كهولا وشباناً وكذا قال عكرمة والضحاك ومقاتل بن حيان وغير واحد، وقال مجاهد شباناً وشيوخاً وأغنياء ومساكين وكذا قال أبو صالح وغيره وقال الحكم بن عتيبة: مشاغيل وغير مشاغيل، وقال

(٢) البخاري (٣٦٥٣)، مسلم (٢٣٨١).

(١) صحيح: المسند (١٢).

(٣) البخاري (٢٨١٠)، مسلم (١٩٠٤).

العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يقول انفروا نشاطًا وغير نشاط، وكذا قال قتادة، وقال ابن أبى نجیح عن مجاهد ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قالوا فإن فىنا الثقیل، وذا الحاجة والضیعة والشغل والتمتیسر به أمره فأنزل الله وأبى أن یعذرهم دون أن ینفروا ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أى: على ما كان منهم، وقال الحسن بن أبى الحسن البصرى أيضًا فى العسر والبسر وهذا كله من مقتضیات العموم فى الآية وهذا اختیار ابن جریر.

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعى: إذا كان النفر إلى دروب الروم نفر الناس إليها خفافًا وركبانًا وإذا كان النفر إلى هذه السواحل نفروا إليها خفافًا وثقالًا وركبانًا ومشاة وهذا تفصیل فى المسألة وقد روى عن ابن عباس ومحمد بن كعب وعطاء الخراسانى وغيرهم أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿قَوْلًا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢] وسأنى الكلام على ذلك إن شاء الله، وقال السدى قوله: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يقول غنيًا وفقيرًا وقويًا وضعيفًا فجاءه رجل يومئذ زعموا أنه المقداد وكان عظيمًا سميتا فشكا إليه وسأله أن يأذن له فأبى فنزلت يومئذ ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس فنسخها الله فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١].

وقال ابن جرير^(١): حدثنى يعقوب حدثنا ابن علىة حدثنا أيوب عن محمد قال شهد أبو أيوب مع رسول الله ﷺ بدرًا ثم لم يتخلف عن غزاة للمسلمين إلا وهو فى آخرين إلا عامًا واحدًا قال وكان أبو أيوب يقول: قال الله تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فلا أجدنى إلا خفيفًا أو ثقیلاً.

وقال ابن جرير^(٢): حدثنى سعيد بن عمرو السكونى حدثنا بقية حدثنا حرير حدثنى عبد الرحمن بن ميسرة حدثنى أبو راشد الحبراني قال: وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ جالسًا على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص وقد فضل عنها من عظمه يريد الغزو فقلت: له قد أعذر الله إليك فقال: أنت علينا سورة البحوث ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾

وبه قال ابن جرير: حدثنى حيان بن زيد الشرعى قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو وكان واليًا على حمص قبل الأفسوس إلى الجراجمة فلقيت شيخًا كبيرًا همًا قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار فأقبلت إليه فقلت يا عم لقد أعذر الله إليك قال فرجع حاجبيه فقال يا ابن أختى استنفرنا الله خفافًا وثقالًا ألا إنه من يحبه الله يتليه ثم يعيده الله فيقيه وإنما يتلى الله من عباده من شكر وصبر وذكر ولم يعبد إلا الله عز وجل. ثم رغب تعالى فى النفقة فى سبيله وبذل المهج فى مرضاته ومرضاة رسوله فقال: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى هذا خير لكم فى الدنيا والآخرة لأنكم تفرمون فى النفقة قليلا فيختمكم الله أموال عدوكم فى الدنيا مع ما يدخر لكم من الكرامة فى الآخرة كما قال النبى ﷺ: «تكفل الله للمجاهد فى سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرده إلى منزله نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة»^(٣) ولهذا قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالَ وَهُوَ كَرِهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ

(٢) تفسير الطبري (١٠/١٣٩ - ١٤٠).

(١) تفسير الطبري (١٠/١٣٩).

(٣) البخاري (٧٤٦٣)، مسلم (١٨٧٦).

يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ٢١٦﴾ ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد^(١) حدثنا محمد بن أبي عدي عن حميد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «أسلم» قال: أجدني كارها قال: «أسلم وإن كنت كارها» .

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ آسْتَطَعْنَا خُرْجًا مَعَكُمْ يَهُلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى موبخاً للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك وقعدوا عن النبي ﷺ بعدما استأذنوه في ذلك مظهرين أنهم ذوو أعدار ولم يكونوا كذلك فقال: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ .

قال ابن عباس: غنيمة قريبة ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي قريباً أيضاً ﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾ أي لكانوا جاءوا معك لذلك ﴿وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ﴾ أي المسافة إلى الشام ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ أي لكم إذا رجعت إليهم ﴿لَوْ آسْتَطَعْنَا خُرْجًا مَعَكُمْ﴾ أي: لو لم تكن لنا أعدار لخرجنا معكم قال الله تعالى: ﴿يَهُلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ .

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ ﴿١٢﴾ لَا يَسْتَنْدِئُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١٣﴾ إِنَّمَا يَسْتَنْدِئُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَزَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿١٤﴾﴾

قال ابن أبي حاتم^(٢): حدثنا أبي حدثنا أبو حصين بن سليمان الرازي حدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبه أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبه فقال ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ﴾ وكذا قال مروق العجلي وغيره . وقال قتادة: عاتبه كما تسمعون ثم أنزل التي في سورة النور فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء فقال ﴿فَإِذَا اسْتَنْدَيْتُكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ الآية [النور: ٦٢] . وكذا روى عن عطاء الخراساني، وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَّبِعَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أي في إبداء الأعدار ﴿وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ يقول تعالى هلا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم في القعود لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه .

ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله فقال: ﴿لَا يَسْتَنْدِئُكَ﴾ أي في القعود عن الغزو ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ لأن أولئك يرون الجهاد قربة ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ إِنَّمَا يَسْتَنْدِئُكَ أي في القعود ممن لا عذر له ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم

(١) صحيح: المسند (١١٦٥٠)، قال الهيثمي في المجمع (٣٠٥/٥): رواه أحمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح .

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (١٠٠٧٥/٦) .

﴿وَأَزَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أى شكت فى صحة ما جنتهم به ﴿فَهَمَّتْ فِي رَبِّبِهِمْ بِرَدِّدُونَ﴾ أى يتحيرون يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى وليست لهم قدم ثابتة فى شىء فهم قوم حيارى هلكى لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضل الله فلن تجده سبيلاً .

بع

الحزب

٢٠

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُمْ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ أَفْعُدُوا مَعَ الْفِتْنَةِ ۗ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا تُضْعَفُونَ لِيَلْجَأَنَّكُمْ إِلَى الْمَنَافِقِ فَيَخْرُجُوا فِيكُمْ وَيَخْلَقُوا أَتُحِبُّونَ الَّذِينَ يَخْلَقُونَ بَيْنَكُمْ وَالْمُنَافِقِينَ هَٰؤُلَاءِ عَلَيْهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۗ﴾

يقول تعالى ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ أى معك إلى الغزو ﴿لَأَعَدُوا لَهُمْ عُدَّةً﴾ أى لكانوا تأهبوا له ﴿وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ أى ابغض أن يخرجوا معكم قلدراً ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أى أخرجهم ﴿وَقِيلَ أَفْعُدُوا مَعَ الْفِتْنَةِ﴾ أى قلدراً، ثم بين تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أى لأنهم جبناء مخذولون ﴿وَلَا تُضْعَفُونَ لِيَلْجَأَنَّكُمْ إِلَى الْمَنَافِقِ﴾ أى ولا أسرعوا السير والمشى بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة ﴿وَفِيكُمْ سَنَعُونَ لَكُمْ﴾ أى مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم يستنصحنونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم فيؤدى إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير . وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير: ﴿وَفِيكُمْ سَنَعُونَ لَكُمْ﴾ أى عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم، وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم بل هذا عام فى جميع الأحوال والمعنى الأول أظهر فى المناسبة بالسياق وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين .

وقال محمد بن إسحاق: كان الذين استأذنوا فيما بلغنى من ذوى الشرف منهم عبد الله بن أبى ابن سلول والجد بن قيس وكانوا أشرفاً فى قومهم فثبطهم الله لعلمه بهم أن يخرجوا معه فيفسدوا عليه جنده وكان فى جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم فقال: ﴿وَفِيكُمْ سَنَعُونَ لَكُمْ﴾ ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فأخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] .

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا كُتِبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِن دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِدَلِيلٍ لَّكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَبِيئًا وَإِنِ لَآتَيْنَهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا وَلَهْدَيْنَهُم مِّرْطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦-٦٨] والآيات فى هذا كثيرة .

﴿لَقَدْ آتَيْنَا الْبَنِيَّةَ إِسَاءًا وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُم سَاهُونَ ۗ﴾

﴿كَرِهُونَ ۗ﴾

يقول تعالى محرضاً لنبيه عليه السلام على المنافقين: ﴿لَقَدْ آتَيْنَا الْبَنِيَّةَ إِسَاءًا وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أى لقد عملوا فكرهم وأجالوا آراءهم فى كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماله مدة طويلة، وذلك أول مقدم النبى ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربتة يهود المدينة

ومناققوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته قال عبد الله بن أبي وأصحابه: هذا أمر قد توجه فدخلوا في الإسلام ظاهراً ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم ولهذا قال تعالى: ﴿حَقٌّ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَاذِبُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَن يَكْفُرُ أَتَدْنِي وَلَا تَقْتِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٩١)

يقول تعالى ومن المنافقين من يقول لك: يا محمد ﴿أَتَدْنِي﴾ في القعود ﴿وَلَا تَقْتِي﴾ بالخروج معك بسبب الجوارى من نساء الروم. قال الله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أى قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا كما قال محمد بن إسحاق (١) عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قالوا: قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو فى جهازه للجعد بن قيس أخى بنى سلمة: «هل لك يا جعد العام فى جلاذ بنى الأصفر؟» فقال: يا رسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى، فو الله لقد عرف قومى ما رجل أشد عجباً بالنساء منى، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أن لا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنت لك» ففى الجعد بن قيس نزلت هذه: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَكْفُرُ أَتَدْنِي وَلَا تَقْتِي﴾ الآية، أى إن كان إنما يخشى من نساء بنى الأصفر وليس ذلك به فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم. وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنها نزلت فى الجعد بن قيس، وقد كان الجعد بن قيس هذا من أشرف بنى سلمة. وفى الصحيح (٢) أن رسول الله ﷺ قال لهم: «من سيدكم يا بنى سلمة؟» قالوا: الجعد بن قيس، على أننا نبخله. فقال رسول الله ﷺ «أى داء أدوأ من البخل! ولكن سيدكم الفتى الأبيض الجعد بشر بن البراء بن معرور» وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أى لا محيد لهم عنها ولا محيص ولا مهرب.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسَوْفَهُمْ لَوَّاعُونَ لَهَا وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَسْتَوَلُّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ (٩٢) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٩٣)

يعلم تبارك وتعالى نبيه ﷺ بعداوة هؤلاء له لأنه مهما أصابه من حسنة أى فتح ونصر وظفر على الأعداء مما يسره ويسر أصحابه ساءهم ذلك ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾ أى قد احترزنا من متابعتنا من قبل هذا ﴿وَيَسْتَوَلُّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم فى عداوتهم هذه التامة فقال: ﴿قُلْ﴾ أى لهم ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أى نحن تحت مشيئته وقدره ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أى سيدنا وملجؤنا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى ونحن متوكلون عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(١) رواه الطبري فى تفسيره (١٠/١٤٨)، عن محمد بن إسحاق به.

(٢) ذكره البخاري معلقاً عقب حديث (٢٥٤٩)، قال الحافظ فى الفتح: هو طرف من حديث أخرجه المؤلف فى الأدب المفرد.

﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْتَبِصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرْتَبِصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٦﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٧﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالى ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّا﴾ أى تنتظرون بنا ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ شهادة أو ظفر بكم قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم ﴿وَنَحْنُ نَرْتَبِصُ بِكُمْ﴾ أى ننتظر بكم ﴿أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أى ننتظر بكم هذا أو هذا إما أن يصيبكم الله بقارعة من عنده أو بأيدينا بسبي أو بقتل ﴿فَتَرْتَبِصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أى مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك وهو أنهم لا يقبل منهم ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى والأعمال إنما تصح بالإيمان ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ أى ليس لهم قصد صحيح ولا همة فى العمل ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ نفقة ﴿إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ﴾ وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أن الله لا يعمل حتى تملوا ^(١) وإنه طيب لا يقبل إلا طيباً ^(٢) . فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً لأنه إنما يقبل من المتقين .

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِمْ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١] وقال ﴿أَيُّسِرُونَ إِنَّمَا تُؤَدُّرُ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ يَدَيْكَ مَكْرُومٌ فِي الْفِتْنَةِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦] وقوله ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال الحسن البصرى بركاتها والنفقة منها فى سبيل الله، وقال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر تقديره: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة . واختار ابن جرير قول الحسن، وهو القول القوي الحسن، وقوله ﴿وَتَرْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أى ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم . عياداً بالله من ذلك وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه .

﴿وَتَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٦٠﴾ لَوْ يَحْدِثُونَ مُلْجَأًا أَوْ مَعْرَابًا أَوْ مَدْخَلًا لَّوَلُوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْحَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

يخبر الله تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفرقهم واهلهم أنهم ﴿وَتَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾

(١) رواه البخاري (١١٥١)، ومسلم (٧٨٢)، من حديث عائشة .

(٢) رواه مسلم (١٠١٥)، والترمذي (٢٩٨٩)، وأحمد (٨١٤٨)، من حديث أبي هريرة به .

يمينًا مؤكدة ﴿وَمَا هُمْ بِيَنْكُرُوهُ﴾ أى فى نفس الأمر ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ أى فهو الذى حملهم على الحلف ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا﴾ أى حصنًا يتحصنون به وحرزًا يتحرزون به ﴿أَوْ مَفْرَجًا﴾ وهى التى فى الجبال ﴿أَوْ مَدْخَلًا﴾ وهو السرب فى الأرض والنفق قال ذلك فى الثلاثة: ابن عباس ومجاهد وقاتدة ﴿لَوْلَا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَعُونَ﴾ أى يسرعون فى ذهابهم عنكم لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة وودوا أنهم لا يخالطونكم ولكن للضرورة أحكام ولهذا لا يزالون فى هم وحزن وغم لأن الإسلام وأهله لا يزال فى عز ونصر ورفعة، فهذا كلما سر المسلمون ساءهم ذلك فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين ولهذا قال ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَفْرَجًا أَوْ مَدْخَلًا لَوْلَا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَحْضُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتَيْنَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أى ومن المنافقين ﴿مَنْ يَلْمِزُكَ﴾ أى يعيب عليك ﴿فِي﴾ قسم ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ إذا فرقتها ويتهمك فى ذلك وهم المتهمون المأبونون وهم مع هذا لا ينكرون للدين وإنما ينكرون لحظ أنفسهم ولهذا ﴿فَإِنْ أُعْطُوا﴾ من الزكاة ﴿رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَحْضُونَ﴾ أى يغضبون لأنفسهم. قال ابن جريج: أخبرنى داود بن أبى عاصم قال أتى النبى ﷺ بصدقة فقسماها هاهنا وهاهنا حتى ذهبت قال ووراه رجل من الأنصار فقال: ما هذا بالعدل فنزلت هذه الآية، وقال قتادة فى قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ يقول: ومنهم من يطعن عليك فى الصدقات، وذكر لنا أن رجلا من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبى ﷺ وهو يقسم ذهبًا وفضة فقال يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ما عدلت، فقال نبى الله ﷺ: «ويلك فمن ذا الذى يعدل عليك بعدى؟» ثم قال نبى الله: «احذروا هذا وأشباهه فإن فى أمتى أشباه هذا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم فإذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم» وذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول: «والذى نفسى بيده ما أعطيكم شيئا ولا أمنعكموه إنما أنا خازن».

وهذا الذى ذكره قتادة شبيه بما رواه الشيخان ^(١) من حديث الزهرى عن أبى سلمة عن أبى سعيد فى قصة ذى الخويصرة واسمه حرقوص لما اعترض على النبى ﷺ حين قسم غنائم حنين فقال له: عدل فإنك لم تعدل فقال: «لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل» ثم قال رسول الله ﷺ وقد رآه مقيفاً: «إنه يخرج من ضئضىء هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء» وذكر بقية الحديث ثم قال تعالى منبها لهم على ما هو خير من ذلك لهم فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتَيْنَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ فتضمنت هذه الآية الكريمة أدبا عظيما وسرا شريفا حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده وهو قوله: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾، وكذلك الرغبة إلى الله وحده فى التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامتنال

(١) البخارى برقم (٣٦١٠)، مسلم برقم (١٠٦٤) بنحوه.

وأمره وترك زواجه وتصديق أخباره والافتاء بآثاره .

﴿ إِنَّمَا أَصَدَقْتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْفَرَيمِينَ
وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿٢٠﴾

لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ ولمزهم إياه في قسم الصدقات بين تعالى أنه هو الذي قسمها وبين حكمها وتولى أمرها بنفسه ولم يكل قسمها إلى أحد غيره فجزأها لهؤلاء المذكورين كما رواه الإمام أبو داود في سنه (١) من حديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم - وفيه ضعف عن زياد بن نعيم عن زياد بن الحارث الصدائي رضى الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ فبايعته فأتى رجل فقال : أعطنى من الصدقة فقال له : « إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أصناف فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك » وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية هل يجب استيعاب الدفع لها أو إلى ما أمكن منها؟ على قولين :

(أحدهما) أنه يجب ذلك وهو قول الشافعي وجماعة .

(والثاني) أنه لا يجب استيعابها بل يجوز الدفع إلى واحد منها ويعطى جميع الصدقة مع وجود الباقيين وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف منهم عمر وحذيفة وابن عباس وأبو العالية وسعيد بن جبيرة وميمون بن مهران ، قال ابن جرير : وهو قول عامة أهل العلم ، وعلى هذا وإنما ذكرت الأصناف ههنا لبيان المصرف لا لوجوب استيعاب الإعطاء . ولو جوه الحجاج والمآخذ مكان غير هذا والله أعلم ، وإنما قدم الفقراء ههنا على البقية لأنهم أحوج من البقية على المشهور ولشدة فاقتهم وحاجتهم ، وعند أبي حنيفة أن المسكين أسوأ حالا من الفقير وهو كما قال .

قال ابن جرير : حدثني يعقوب حدثنا ابن علي أنبأنا ابن عون عن محمد قال : قال عمر رضى الله عنه : الفقير ليس بالذى لا مال له ، ولكن الفقير الأخلق الكسب قال ابن علي : الأخلق المحارّف عندنا ، والجمهور على خلافه وروى عن ابن عباس ومجاهد والحسن البصرى وابن زيد . واختاره ابن جرير وغير واحد أن الفقير هو المتعفف الذى لا يسأل الناس شيئاً والمسكين هو الذى يسأل ويطوف يتبع الناس وقال قتادة : الفقير من به زمانة والمسكين الصحيح الجسم ، وقال الثورى عن منصور عن إبراهيم هم فقراء المهاجرين ، قال سفيان الثورى يعنى ولا يعطى الأعراب منها شيئاً وكذا روى عن سعيد بن جبيرة وسعيد بن عبد الرحمن بن أبزى .

وقال عكرمة : ولا تقولوا الفقراء المسلمين مساكين إنما المساكين أهل الكتاب ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية . فأما الفقراء فعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مِرّة سوي » رواه أحمد وأبو داود والترمذى (٢) ، ولأحمد أيضاً والنسائى وابن ماجه (٣) عن أبى هريرة مثله وعن عبيد الله بن عدى بن الخيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من

(١) ضعيف : أبو داود (١٦٣٠) ، في إسناده عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، وهو ضعيف انظر : ضعيف الجامع رقم (١٦٤٢) .

(٢) صحيح : أحمد (٦٤٩٤) ، أبو داود (١٦٣٤) ، الترمذى (٦٥٢) .

(٣) صحيح : المسند (٨٨١٨) ، والنسائى (٢٥٩٧) ، وابن ماجه (١٨٣٩) .

الصدقة فقلَّب فيهما البصر فرأهما جليدين فقال: «إن شئتما أعطيتكما ولاحظ فيهما لغنى ولا لقوى مكتسب» رواه أحمد وأبو داود والنسائي^(١) بإسناد جيد قوى وقال ابن أبي حاتم فى كتاب الجرح والتعديل: أبو بكر العبسى قال قرأ عمر رضى الله عنه ﴿إِنَّمَا الْأَصْدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ قال: هم أهل الكتاب، روى عنه عمر بن نافع سمعت أبى يقول ذلك قلت وهذا قول غريب جدًا بتقدير صحة الإسناد فإن أبا بكر هذا وإن لم ينص أبو حاتم على جهالته لكنه فى حكم المجهول، وأما المساكين فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذى يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان، والتمر والتمرتان» قالوا فمن المسكين يا رسول الله؟ قال «الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئًا» رواه الشيخان البخاري ومسلم^(٢). وأما العاملون عليها فهم الجبابة والسعاة يستحقون منه قسطا على ذلك ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة لما ثبت فى صحيح مسلم^(٣) عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث، أنه انطلق هو والفضل بن العباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة فقال: «إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد، إنما هى أوساخ الناس».

وأما المؤلفلة قلوبهم فأقسام منهم من يعطى ليسلم، كما أعطى النبى ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين، وقد كان شهدا مشركًا، قال: فلم يزل يعطينى حتى صار أحب الناس إلى بعد أن كان أبغض الناس إلى، كما قال الإمام أحمد^(٤): حدثنا زكريا بن عدى أنا ابن المبارك، عن يونس عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية قال: أعطانى رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس إلى، فما زال يعطينى حتى صارو إنه لأحب الناس إلى، ورواه مسلم والترمذى^(٥) من حديث يونس عن الزهرى به، ومنهم من يعطى ليحسن إسلامه ويثبت قلبه، كما أعطى يوم حنين أيضًا جماعة من صناديد الطلقاء وأشرفهم مائة من الإبل، وقال «إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلى منه خشية أن يكبه الله على وجهه فى نار جهنم»^(٦). وفى الصحيحين^(٧) عن أبى سعيد أن عليًا بعث إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم بذهية فى تربتها من اليمن، فقسما بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعيينة بن بدر، وعلقمة بن علاثة، وزيد الخير، وقال «أتألفهم» ومنهم من يعطى لما يرجى من إسلام نظرائه، ومنهم من يعطى ليجبى الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد، ومحل تفصيل هذا فى كتب الفروع، والله أعلم.

وهل تعطى المؤلفلة على الإسلام بعد النبى ﷺ؟ فيه خلاف، فروى عن عمر وعامر والشعبى وجماعة: أنهم لا يعطون بعده لأن الله قد أعز الإسلام وأهله ومكن لهم فى البلاد، وأذل لهم رقاب العباد، وقال آخرون: بل يعطون لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم. وأما الرقاب فروى عن الحسن البصرى ومقاتل بن حيان

(١) صحيح: أحمد (١٧٥١١)، وأبو داود (١٦٣٣)، والنسائي (٢٥٩٨).

(٢) البخاري برقم (١٤٧٩)، مسلم برقم (١٠٣٩).

(٣) مسلم برقم (١٠٧٢).

(٤) صحيح: المسند (١٤٨٨٠).

(٥) مسلم (٢٣١٣)، والترمذى (٦٦٦).

(٦) البخاري (٢٧)، (١٤٧٨)، ومسلم (١٥٠).

(٧) البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).

وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن جبير والنخعي والزهرى وابن زيد أنهم المكاتبون، وروى عن أبى موسى الأشعري نحوه، وهو قول الشافعى والليث رضى الله عنهما.

وقال ابن عباس والحسن: لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل ومالك وإسحاق، أى أن الرقاب أعم من أن يعطى المكاتب أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالاً، وقد ورد فى ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة، وأن الله يعتق بكل عضو منها عضواً من معتقها حتى الفرج بالفرج، وما ذاك إلا لأن الجزء من جنس العمل ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٩] وعن أبى هريرة رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال: «ثلاثة حق على الله عونهم: الغازى فى سبيل الله، والمكاتب الذى يريد الأداء، والناكح الذى يريد العفاف» رواه الإمام أحمد وأهل السنن^(١) إلا أبى داود، وفى المسند^(٢) عن البراء بن عازب قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله دلنى على عمل يقربنى من الجنة ويباعدنى من النار. فقال: «أعتق النسمة وفك الرقبة» فقال: يا رسول الله أو ليسا واحداً؟ قال: «لا، عتق النسمة أن تفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين فى ثمنها» وأما الغارمون فهم أقسام فمنهم: من تحمل حمالة أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بماله أو غرم فى أداء دينه أو فى معصية ثم تاب فهؤلاء يدفع إليهم، والأصل فى هذا الباب حديث قبيصة بن مخارق الهلالي قال: تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال «أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها» قال: ثم قال: «يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال سداً من عيش - ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوى الحج من قومه فيقولون لقد أصابت فلاناً فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال سداً من عيش - فما سواهن من المسألة سحت يأكلها صاحبها سحتاً» رواه مسلم^(٣)، وعن أبى سعيد قال: أصيب رجل فى عهد رسول الله ﷺ فى ثمار ابتاعها فكثرت دينه، فقال النبى ﷺ: «تصدقوا عليه» فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النبى ﷺ لغرمائه: «خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك» رواه مسلم^(٤).

وقال الإمام أحمد^(٥): حدثنا عبد الصمد، أنبأنا صدقة بن موسى عن أبى عمران الجونى عن قيس بن يزيد عن قاضى المصرين عن عبد الرحمن بن أبى بكر قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعو الله بصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يديه فيقول: يا ابن آدم فيم أخذت هذا الدين وفيم ضيعت حقوق الناس؟ فيقول: يا رب إنك تعلم أنى أخذته فلم أكل ولم أشرب ولم أضحى ولكن أتى على يدي إما حرق وإما سرق وإما ضيعة. فيقول الله صدق عبدي أنا أحق من قضى عنك اليوم، فيدعو الله يمشى فيضعه فى كفة ميزانه فترجع حسناته على سيئاته، فيدخل الجنة بفضل الله ورحمته» وأما

(١) حسن: المسند (٩٣٤٨)، والترمذي (١٦٥٥)، والنسائي (٣١٢٠)، وابن ماجه (٢٥١٨).

(٢) صحيح: المسند (١٨١٧٣).

(٣) مسلم (١٠٤٤)، وأبو داود (١٦٤٠)، والنسائي (٢٥٧٩)، (٢٥٩١).

(٤) مسلم برقم (١٥٥٦).

(٥) حسن: المسند (١٧١٠)، قال الهيثمي فى المجمع (٤/١٣٣): رواه أحمد، والبخارى، والطبراني فى الكبير وفى صدقة الدقيقي، وثقه مسلم بن إبراهيم وضعفه جماعة.

﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان، وعند الإمام أحمد والحسن وإسحاق والحج من سبيل الله للحديث، وكذلك ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره، فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال، وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء، فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه. والدليل على ذلك الآية وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه^(١) من حديث معمر بن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: العامل عليها أو رجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غاز في سبيل الله، أو مسكين تصدق عليه منها فأهدى لغني» وقد رواه السفينان عن زيد بن أسلم عن عطاء مرسلًا، ولأبي داود^(٢) عن عطية العوفى عن أبي سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني إلا في سبيل الله وابن السبيل أو جار فقير فيهدى لك أو يدعوك» وقوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي حكما مقدرا بتقدير الله وفرضه قسمته ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله ويقوله ويشعره ويحكم به، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿وَمِنَهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ﴾ أي من قال له شيئاً صدقه ومن حدثه فينا صدقه، فإذا جثناه وحلفنا له صدقنا. روى معناه عن ابن عباس ومجاهد وقاتدة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ويصدق المؤمنين ﴿وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ أي وهو حجة على الكافرين ولهذا قال ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مِّنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخَبْرُ
الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ﴾ الآية. قال ذكر لنا أن رجلا من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا وإن كان ما يقول محمد حقًا، لهم شر من الحمير. قال: فسمعا رجل من المسلمين فقال: والله ما يقول محمد لحق ولأنت أشر من الحمار، قال: فسعى بها الرجل إلى النبي ﷺ فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال «ما حملك على الذى قلت؟» فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب، فأنزل الله - عز وجل - ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مِّنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا﴾

(١) صحيح: أبو داود (١٦٣٥)، وابن ماجه (١٨٤١).

(٢) أبو داود (١٦٣٧)، وأحمد في مسنده (١١٥١٩).

الآية، أى ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حاد الله عز وجل أى شاقه وحاربه وخالفه، وكان فى حد والله ورسوله فى حد و﴿فَأَنْتَ لَمْ تَأْرَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا﴾ أى مهانًا معذبًا، ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ أى وهذا هو الذل العظيم والشقاء الكبير .

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا وَإِنَّ اللَّهَ لَخَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قال مجاهد: يقولون القول بينهم ثم يقولون عسى الله أن لا يفشى علينا سرنا هذا، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَتَوَلَّوْنَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسِبْتُمْ جَهَنَّمَ بَصُلُونًا يَتَسَاءَلُونَ الْمَلَأِينَ [المجادلة: ٨]، وقال فى هذه الآية: ﴿قُلِ اسْتَزِرُوا وَإِنَّ اللَّهَ لَخَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أى إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به ويبين له أمركم، كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٢٩-٣٠]، ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة الفاضحة فاضحة المنافقين .

﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ لِيَقُولُوا إِنَّمَا كُنَّا نَخُوْضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣١﴾﴾ لَا تَعْمَدُوا فَمَا كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ فَاعْبُدُوا اللَّهَ عِندَ حَبَابِ السَّجْدِ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يُجْرِمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قال أبو معشر المديني: عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: قال رجل من المنافقين: ما أرى قرأنا هؤلاء إلا أربغنا بطونًا وأكذبنا السنة، وأجبنا عند اللقاء. فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فجاء إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب. فقال: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ - إلى قوله - ﴿كَانُوا يُجْرِمُونَ﴾ وإن رجله لتسنان الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بنسعة رسول الله ﷺ. وقال عبد الله بن وهب: أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رجل فى غزوة تبوك فى مجلس يومًا: ما رأيت مثل قرأنا هؤلاء أربغ بطونًا ولا أكذب أسنًا ولا أجبنا عند اللقاء. فقال رجل فى المسجد: كذبت ولكنا منافق لا أخبرن رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن، قال عبد الله بن عمر: وأنا رأيت متعلقًا بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة، وهو يقول يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣١﴾﴾ لَا تَعْمَدُوا فَمَا كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ الآية. وقد رواه الليث عن هشام بن سعيد بنحو من هذا.

وقال ابن إسحاق وقد كان جماعة من المنافقين منهم ودبعة بن ثابت أخو بنى أمية بن زيد بن عمرو بن عوف، ورجل من أشجع حليف لبنى سلمة يقال له مخش بن حمير، يшиرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ والله لكانا بكم غداً مقرنين فى الحبال، إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين فقال مخش بن حمير: والله لوددت أنى أفاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وإننا نغفلت أن ينزل فىنا قرآن لمقاتلكم هذه، وقال رسول الله ﷺ فيما بلغنى لعمار بن ياسر «أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا

فإن أنكروا فقل بلى قلتكم كذا وكذا» فانطلق إليهم عمار فقال ذلك لهم فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه فقال ودبعة بن ثابت ورسول الله واقف على راحلته، فجعل يقول وهو آخذ بحقيبها: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب فنزلت الآية فقال مخشن بن حمير: يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي فكان الذي عفى عنه في هذه الآية مخشن بن حمير فتسمى عبد الرحمن وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر.

وقال قتادة ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ قال: فبينما النبي ﷺ في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسرون بين يديه، فقالوا: يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها هيهات هيهات، فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على ما قالوا، فقال «على بهؤلاء النفر» فدعاهم فقال «قلتكم كذا وكذا» فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب.

وقال عكرمة في تفسير هذه الآية: كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول اللهم إني أسمع آية أنا أعني بها تقشعر منها الجلود وتجلب منها القلوب، اللهم فاجعل وفاتي قتلا في سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفتت أنا دفنت.

قال: فأصيب يوم اليمامة فما من أحد من المسلمين إلا وقد وجد غيره. وقوله: ﴿لَا تَسْتَدْرِبُوا قَدَّ كَثَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ﴾ أي بهذا المقال الذي استهزأتم به ﴿إِن تَنُفَّ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ تَعَدَّتْ طَائِفَةٌ﴾ أي لا يعفى عن جميعكم ولا بد من عذاب بعضكم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ لَهِمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ يقول تعالى منكرًا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، كان هؤلاء ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي عن الإنفاق في سبيل الله، ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي نسوا ذكر الله ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي عاملهم معاملة من نسيهم كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَسْنَاكَ كَأَنِّي نَسَيْتُ لِقَاءَ يَوْمِكِ هَذَا﴾ [الجنابية: ٣٤] ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي الخارجون عن طريق الحق الداخلون في طريق الضلالة.

وقوله: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أي على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها مخلدين هم والكفار ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي كفايتهم في العذاب ﴿وَلَعْنَةُ اللَّهِ﴾ أي طردهم وأبعدهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى: أصاب هؤلاء من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم وقد كانوا

أشهد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاً، وقوله ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾ قال الحسن البصرى: بدينهم، وقوله ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخَضْتُمْ كَالَّذِي خَشَاؤُكُمْ﴾ أي فى الكذب والباطل ﴿أُوَلِّيتُكَ حَاطَتَ أَعْنَاقِهِمْ﴾ أى بطلت مساعيهم فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُوَلِّيتُكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب.

قال ابن جرير^(١) عن عمرو بن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الآية، قال ابن عباس: ما أشبه الليلة بالبارحة ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم لا أعلم إلا أنه قال: «والذى نفسى بيده لتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضب لدخلتموه» قال ابن جرير^(٢): «وأخبرنى زياد بن سعد عن محمد بن زيد بن مهاجر عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده لتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع وبيعاً ببيع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا: ومن هم يا رسول الله، أهل الكتاب؟ قال: «فمه» وهكذا رواه أبو معشير عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ: فذكره، وزاد قال: أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم القرآن ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْفَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ﴾، قال أبو هريرة: الخلاق: الدين ﴿وَخَضْتُمْ كَالَّذِي خَشَاؤُكُمْ﴾ قالوا يا رسول الله كما صنعت فارس والروم؟ قال «فهل الناس إلا هم؟» وهذا الحديث له شاهد فى الصحيح^(٣).

﴿آلَةُ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمٍ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمٍ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ يَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالى واعظاً لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسول ﴿آلَةُ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أى: ألم تخبروا خير من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسول ﴿قَوْمٍ نُوحٍ﴾ وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام، ﴿وَعَادٍ﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم لما كذبوا هوداً عليه السلام، ﴿وَتَمُودَ﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحاً عليه السلام وعقروا الناقة، ﴿وَقَوْمٍ إِبْرَاهِيمَ﴾ كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم وأهلك ملكهم النمرود بن كنعان بن كوش الكنعانى لعنه الله، ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام وكيف أصابتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ قوم لوط وقد كانوا يسكنون فى مدائن، وقال فى الآية الأخرى ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ [النجم: ٥٣] أى الأمة المؤتفكة وقيل أم قراهم، وهى سدوم، والغرض أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبى الله لوطاً عليه السلام وإتيانهم الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين، ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى بالحجج والدلائل القاطعات، ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ يَظْلِمَهُمْ﴾ أى بإهلاكه إياهم لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العليل، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا

(١) صحيح: رواه الطبري فى تفسيره (١٧٦/١٠). (٢) رواه الطبري فى تفسيره (١٧٦/١٠).

(٣) رواه البخاري (٧٣١٩)، من حديث سعيد المقبرى عن أبى هريرة.

أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٠٣﴾ أى بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار .
 ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ
 الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
 حَكِيمٌ ﴿١٠٤﴾

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة، فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ
 وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أى يتناصرون ويتعاضدون كما جاء فى الصحيح^(١) «المؤمن للمؤمن
 كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه، وفى الصحيح^(٢) أيضاً «مثل المؤمنين فى توادهم
 وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحوى والسهر» .

وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَنْتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْفِتْرِ
 وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] .

وقوله: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أى يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ﴾ أى فيما أمر أو ترك ما عنه زجر ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أى سيرحم الله من اتصف بهذه
 الصفات ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أى : عزيز ومن أطاعه أعزه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿حَكِيمٌ﴾
 فى قسمته هذه الصفات لهؤلاء وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإن له الحكمة فى جميع ما
 يفعله تبارك وتعالى .

﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ
 فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٥﴾

يخبر تعالى بما أعدده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم فى ﴿جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى ماكثين فيها أبداً ﴿وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ﴾ أى حسنة البناء طيبة القرار، كما جاء فى
 الصحيحين^(٣) من حديث أبى عمران الجونى عن أبى بكر بن أبى موسى عبد الله بن قيس الأشعرى
 عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آتيتهما وما
 فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن» وبه قال،
 قال رسول الله ﷺ: «إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً فى السماء!
 للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم لا يرى بعضهم بعضاً»، وأخرجاه^(٤) فى الصحيحين^(٥) أيضاً عن
 أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان، فإن حقاً
 على الله أن يدخله الجنة هاجر فى سبيل الله أو جلس فى أرضه التى ولد فيها» قالوا: يا رسول الله أفلا
 نخبر الناس؟ قال: «إن فى الجنة مائة درجة أعددها الله للمجاهدين فى سبيله بين كل درجتين كما بين

(١) أخرجه البخاري (٤٨١)، مسلم (٢٥٨٥)، من حديث أبى موسى رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١١)، مسلم (٢٥٨٦) ، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه .

(٣) البخاري برقم (٤٨٧٨)، مسلم (١٨٠) . (٤) البخاري برقم (٤٨٧٩)، مسلم (٣٨٣٨) .

(٥) البخاري (٢٧٩٠)، ولم أجده فى مسلم .

السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن وعند الطبراني والترمذي وابن ماجه^(١) من رواية زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن معاذ بن جبل رضى الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول فذكر مثله.

وللترمذي^(٢) عن عبادة بن الصامت مثله. وعن أبي حازم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون الغرف في الجنة كما تراءون الكوكب في السماء» أخرجاه في الصحيحين^(٣)، ثم ليعلم أن أعلى منزلة في الجنة مكان يقال له الوسيلة لقربه من العرش وهو مسكن رسول الله ﷺ من الجنة، كما قال الإمام أحمد^(٤): حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن ليث عن كعب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صليتم على فاسألوا الله لى الوسيلة» قيل يا رسول الله وما الوسيلة؟ قال «أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو».

وفى صحيح مسلم^(٥) من حديث كعب بن علقمة: عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليّ فإنه من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا لى الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنفى إلا لعبد من عباد الله. وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة يوم القيامة».

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني^(٦): حدثنا أحمد بن على الأبار، حدثنا الوليد بن عبد الملك الحراني، حدثنا موسى بن أعين عن ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: سلوا الله لى الوسيلة فإنه لم يسألها لى عبد فى الدنيا إلا كنت له شهيداً أو شفيماً يوم القيامة». وفى مسند الإمام أحمد^(٧) من حديث سعد أبي مجاهد الطائى عن أبى المدلة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قلنا يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: «لبنة ذهب ولبنة فضة، وملاطها المسك وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران. من يدخلها يتمم لا يياس ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه» وروى عن ابن عمر مرفوعاً نحوه^(٨)، وعند الترمذي^(٩) من حديث عبد الرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعد عن على رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة لغرفاً يرى ظهورها من بطونها وبطنونها من ظهورها» فقام أعرابى فقال: يا رسول الله لمن هي؟ فقال: «لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام» ثم قال: حديث غريب ورواه الطبراني^(١٠) من حديث عبد الله بن عمرو وأبى مالك الأشعري كل منهما عن -

(١) صحيح: الطبراني فى الكبير (١٥٧/٢٠)، برقم (٣٢٧)، والترمذي (٢٥٣)، وابن ماجه (٤٣٣١).

(٢) صحيح: الترمذي (٢٥٣١). (٣) البخاري برقم (٦٥٥٥)، مسلم (٢٨٣٠).

(٤) صحيح: المسند (٧٥٤٤). (٥) مسلم برقم (٣٨٤).

(٦) الطبراني فى الأوسط (١٩٨/١) برقم (٦٣٣). (٧) حسن لغيره: المسند (٧٩٨٣).

(٨) قال الهيثمي فى المجمع (٣٩٧/١٠): رواه الطبراني بإسناد حسن الترمذي رجاله.

(٩) صحيح لغيره: الترمذي (٥٢٥٦).

(١٠) حديث: أبى مالك الأشعري: الطبراني فى الكبير (٣٠١/٣)، برقم (٣٤٦٦)، (٣٤٦٧).

حديث عبد الله بن عمرو: قال الهيثمي فى المجمع (٤٢٠/١٠): رواه أحمد ورجاله وثقوا على ضعف فى بعضهم.

النبي ﷺ بنحوه، وكل من الإسنادين جيد حسن، وعنده أن السائل هو أبو مالك الأشعري، فالله أعلم.
وعن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل مشمر إلى الجنة؟ فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلأل وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمره نضيجة، وزوجة حسناء جميلة. وحلل كثيرة، ومقام في أبد في دار سليمة، وفاكهة وخضرة وحبرة ونعمة في محلة عالية بهية» قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها، قال: «قولوا إن شاء الله» فقال القوم: إن شاء الله، رواه ابن ماجه^(١). وقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أى رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم، كما قال الإمام مالك رحمه الله عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون يا رب وأى شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً» أخرجه^(٢) من حديث مالك، وقال أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملى: حدثنا الفضل الرخامى، حدثنا الفريابى عن سفيان عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله عز وجل هل تشتهون شيئاً فأزيدكم؟ قالوا يا ربنا ما خير مما أعطيتنا؟ قال: رضوانى أكبر»^(٣) ورواه البزار فى مسنده من حديث الثورى، وقال الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه صفة الجنة: هذا عندى على شرط الصحيح، والله أعلم.

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٧٧﴾
يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَتُوا يَمَازَ يَتَالُؤُا وَمَا
فَعَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ
عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٨﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار فى الدار الآخرة، وقد تقدم عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه قال: بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف: سيف للمشركين ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْمُتَرَمَّةَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] وسيف لكفار أهل الكتاب ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] وسيف للمنافقين ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣] وسيف للبغاة ﴿فَقَاتِلُوا آلِي بَنِي حَنِيءَ حَتَّى تَفِئَءَ إِلَهُ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] وهذا يقتضى أنهم يجاهدون بالسيف إذا أظهروا النفاق وهو اختيار ابن جرير.

(١) حسن: ابن ماجه (٤٣٣٢)، انظر: الأحاديث المختارة (٤/١٣٢-١٣٤).

(٢) البخاري (٦٥٤٩)، مسلم (٢٨٢٩).

(٣) صحيح: رواه الحاكم فى مستدركه (١٥٦/١) برقم (٢٧٦)، من طريق الفريابى به وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وقال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ قال: بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلمه فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه. وقال ابن عباس: أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم، وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف واغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم، وعن مقاتل والربيع مثله، وقال الحسن وقتادة مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم، وقد يقال إنه لا منافاة بين هذه الأقوال لأنه تارة يؤاخذهم بهذا وتارة بهذا بحسب الأحوال، والله أعلم. وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ قال قتادة: نزلت في عبد الله بن أبيي وذلك أنه اقتل رجلان جهني وأنصاري فعلا الجهني على الأنصاري، فقال عبد الله للأنصار ألا تنصروا أحاكم؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سَمَنْ كَلْبِكَ يَا كَلْبُكَ، وقال: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، فسمى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف بالله ما قاله، فأنزل الله فيه هذه الآية، وروى إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة عن عمه موسى بن عقبة قال: فحدثني عبد الله بن الفضل أنه سمع أنس بن مالك رضى الله عنه يقول: حزنت على من أصيب بالحرة من قومي فكتب إلى زيد بن أرقم وبلغه شدة حزني يذكر أنه سمع رسول الله يقول: «اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار» وشك ابن الفضل في «أبناء أبناء الأنصار» قال ابن الفضل: فسأل أنسا بعض من كان عنده عن زيد بن أرقم؟ فقال: هو الذي يقول له رسول الله ﷺ: «أوفى الله له بأذنه» وذلك حين سمع رجلا من المنافقين يقول ورسول الله ﷺ يخطب: لئن كان صادقاً فنحن شر من الحمير.

فقال زيد بن أرقم: فهو والله صادق ولأنت شر من الحمار. ثم رفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فحجده القائل فأنزل الله هذه الآية تصديقا لزيد، يعني قوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ الآية، رواه البخاري في صحيحه^(١) عن إسماعيل بن أبي أويس عن إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة - إلى قوله - هذا الذي أوفى الله له بأذنه، ولعل ما بعده من قول موسى بن عقبة، وقد رواه محمد بن فليح عن موسى بن عقبة بإسناده: ثم قال قال ابن شهاب... فذكر ما بعده عن موسى عن ابن شهاب. والمشهور في هذه القصة أنها كانت في غزوة بني المصطلق فلعل الراوي وهم في ذكر الآية، وأراد أن يذكر غيرها فذكرها، والله أعلم.

قال الأمامي في مغازيه: حدثنا محمد بن إسحاق عن الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه عن جده قال: لما قدم رسول الله ﷺ أخذني قومي فقالوا: إنك امرؤ شاعر فإن شئت أن تعتنر إلى رسول الله ﷺ ببعض العلة ثم يكون ذنباً تستغفر الله منه...، وذكر الحديث بطوله إلى أن قال: وكان ممن تخلف من المنافقين ونزل فيه القرآن منهم ممن كان مع النبي ﷺ الجلّاس بن سويد بن الصامت، وكان على أم عمير بن سعد، وكان عمير في حجره، فلما نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل في المنافقين قال الجلّاس: والله لئن كان هذا الرجل صادقاً فيما يقول لنحن شر من الحمير. فسمعها عمير بن سعد فقال: والله يا جلّاس إنك لأحب الناس إلى وأحسنهم عندي بلاء

وأعزهم على أن يصله شيء يكرهه ، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنك ولئن كتمتها لتهلكني ، وإلحادهما أهون عليّ من الأخرى ، فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال الجلاس ، فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى أتى النبي ﷺ فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد ولقد كذب على ، فأنزل الله عز وجل فيه ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ إلى آخر الآية ، فوقفه رسول الله ﷺ عليها فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته ونزع فأحسن النزوع .

هكذا جاء هذا مدرجاً في الحديث متصلاً به وكأنه والله أعلم من كلام ابن إسحاق نفسه لا من كلام كعب بن مالك ، وقال عروة بن الزبير : نزلت هذه الآية في الجلاس بن سويد بن الصامت ، أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء ، فقال الجلاس : إن كان ما جاء به محمد حقاً فنحن أشر من حمرنا هذه التي نحن عليها ، فقال مصعب : أما والله يا عدو الله لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت فأتيت النبي ﷺ وخفت أن ينزل في القرآن أو تصيبني قارعة أو أن أخلط بخطيئته ، فقلت : يا رسول الله أقبلت أنا والجلاس من قباء فقال كذا وكذا ولولا مخافة أن أخلط بخطيئة أو تصيبني قارعة ما أخبرتك ، قال : فدعا الجلاس فقال «يا جلاس أقلت الذي قاله مصعب؟» فحلف فأنزل الله ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ ، وقال محمد بن إسحاق : كان الذي قال تلك المقالة فيما بلغني الجلاس بن سويد بن الصامت فرفعه عليه رجل كان في حجره يقال له عمير بن سعد فأنكرها فحلف بالله ما قالها ، فلما نزل فيه القرآن تاب ونزع وحسنت توبته فيما بلغني ، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير ^(١) : حدثني أيوب بن إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا عبد الله بن رجاء ، حدثنا إسرائيل عن سماك عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة فقال : «إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم - بعيني الشيطان - فإذا جاء فلا تكلموه» فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله ﷺ فقال : «علام تشتمني أنت وأصحابك؟» فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم ، فأنزل الله عز وجل ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ الآية ، وقوله ﴿وَهُمْ أَيْمَانُ يَمَا تَرُونَ﴾ قيل نزلت في الجلاس بن سويد وذلك أنه هم بقتل ابن امرأته حين قال لأخبرن رسول الله ﷺ ، وقيل في عبد الله بن أبي ، هم بقتل رسول الله ﷺ .

وقال السدي : نزلت في أناس أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي وإن لم يرض رسول الله ﷺ وقد ورد أن نفرًا من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ وهو في غزوة تبوك ، في بعض تلك الليالي في حال السير ، وكانوا بضعة عشر رجلاً .

قال الضحاك : ففهم نزلت هذه الآية ، وذلك بين فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي ^(٢) في كتاب دلائل النبوة من حديث محمد بن إسحاق عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : كنت آخذًا بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقوده وعمار يسوق الناقة أو أنا أسوقه وعمار يقوده حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا بانئى عشر راكبًا قد اعترضوه فيها ، قال فأنبهت رسول الله ﷺ بهم ، فصرخ بهم فولوا مدبرين فقال لنا رسول الله ﷺ : «هل عرفتم القوم؟» قلنا : لا يا

(٢) صحيح لغيره : دلائل النبوة للبيهقي (٥/٢٦٠) .

(١) حسن : تفسير الطبري (١٠/١٨٥) .

رسول الله قد كانوا متلثمين ولكننا قد عرفنا الركاب قال: «هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة وهل تدرون ما أرادوا؟» قلنا: لا، قال: «أرادوا أن يزحموا رسول الله ﷺ في العقبة فيلقوه منها» قلنا: يا رسول الله أفلا تبعث إلى عشائرتهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: «لا، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمداً قاتل يقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم - ثم قال - اللهم ارمهم بالدبيلة» قلنا: يا رسول الله وما الدبيلة؟ قال: «شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك».

وقال الإمام أحمد رحمه الله ^(١): حدثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر منادياً فنادى: إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل فغشوا عماراً وهو يسوق برسول الله ﷺ فأقبل عمار رضى الله عنه يضرب وجوه الرواحل فقال رسول الله ﷺ لحذيفة «قد قد» حتى هبط رسول الله ﷺ فلما هبط نزل ورجع عمار فقال يا عمار: «هل عرفت القوم؟» قال: لقد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون قال «هل تدري ما أرادوا؟» قال: الله ورسوله أعلم قال: «أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ - راحلته فيطرحوه» قال: فسأل عمار رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فقال نشدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة؟ قال: أربعة عشر رجلاً فقال: إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر قال فعذر رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا: والله ما سمعنا منادى رسول الله ﷺ وما علمنا ما أراد القوم فقال عمار أشهد: أن الاثنى عشر الباقيين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهداء، وهكذا روى ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير نحو هذا، وأن رسول الله ﷺ أمر أن يمشى الناس في بطن الوادي وصعد هو وحذيفة وعمار العقبة، فتبعهم هؤلاء النفر الأذليون وهم متلثمون فأرادوا سلوك العقبة، فأطلع الله على مرادهم رسول الله ﷺ فأمر حذيفة فرجع إليهم فضرب وجوه رواحلهم ففزعوا ورجعوا مقبوحين، وأعلم رسول الله ﷺ حذيفة وعماراً بأسمائهم وما كانوا هموا به من الفتك به صلوات الله وسلامه عليه وأمرهما أن يكتما عليهم، وكذا روى يونس بن بكير عن ابن إسحاق، إلا أنه سمي جماعة منهم، فالله أعلم.

وكذا قد حكى في معجم الطبراني قاله البيهقي، ويشهد لهذه القصة بالصحة ما رواه مسلم ^(٢): حدثنا زهير بن حرب حدثنا أبو أحمد الكوفي، حدثنا الوليد بن جميع، حدثنا أبو الطفيل قال: كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله كم كان أصحاب العقبة؟ قال: فقال له القوم: أخبره إذ سألك؟ فقال: كنا نخبر أنهم أربعة عشر فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أن اثنى عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهداء، وعذر ثلاثة قالوا: ما سمعنا منادى رسول الله ﷺ ولا علمنا بما أراد القوم، وقد كان في حرة فمشى فقال: إن الماء قليل فلا يسبقني إليه أحد، فوجد قوماً قد سبقوه فلعنهم يومئذ، وما رواه مسلم أيضاً ^(٣) من حديث قتادة عن أبي نضرة عن قيس بن عباد عن عمار بن ياسر قال: أخبرني حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال: «في أصحابي اثنا عشر منافقاً لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل

(٢) مسلم برقم (٢٧٧٩).

(١) صحيح: المسند (٢٣٢٨٠).

(٣) مسلم برقم (٢٧٧٩).

في سم الخياط : ثمانية منهم تكفيهم الدبيلة سراج من نار تظهر بين أكتافهم حتى ينجم في صدورهم ولهذا كان حذيفة يقال له صاحب السر الذي لا يعلمه غيره أى من تعيين جماعة من المنافقين وهم هؤلاء قد أطلعه عليهم رسول الله ﷺ دون غيره، والله أعلم، وقد ترجم الطبراني في مسند حذيفة^(١) تسمية أصحاب العقبة، ثم روى عن علي بن عبد العزيز عن الزبير بن بكار أنه قال : هم معتب بن قشيرة ووديعة بن ثابت وجد بن عبد الله بن نبتل بن الحارث من بنى عمرو بن عوف والحارث بن يزيد الطائي وأوس بن قيطي والحارث بن سويد وسعد بن زرارة وقيس بن فهد وسويد بن داعم من بنى الحبلي وقيس بن عمرو بن سهل وزيد بن اللصيت وسلالة بن الحمام وهما من بنى قينقاع أظهروا الإسلام.

وقوله تعالى : ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أى وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويمن سفارته، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به كما قال ﷺ للانصار : «ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي»^(٢) كلما قال شيئاً قالوا الله ورسوله أمن . وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب، كما قال تعالى : ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ الآية (البروج : ٨) . كما قال عليه السلام : «ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً فإغناه الله»^(٣) ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال ﴿فَإِنْ يَتُوبَا إِلَيْكَ خَيْرًا لَمْ تَكُنْ عَلَيْهِمْ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أى وإن يستمروا على طريقهم ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا﴾ أى بالقتل والهيم والغم، ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ أى بالعذاب والنكال والهوان والصغار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أى وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم لا يحصل لهم خيراً ولا يدفع عنهم شراً.

ثلاثة
أربع
الحزب
٢٠

﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ يَأْتِيَنَّكَ مِنْ فَضْلِهِ لَنْصَدَقَنَّ وَلَنْ كُفِّرَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا آتَتْهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿١٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبَ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين، فما وفى بما قال ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن فى قلوبهم إلى يوم يلقون الله عز وجل يوم القيامة عياداً بالله من ذلك، وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصرى أن سبب نزول هذه الآية الكريمة فى ثعلبة بن حاطب الأنصارى، وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير ههنا، وابن أبى حاتم^(٤) من حديث معان بن رفاعة عن علي بن يزيد عن أبى عبد

(١) الطبراني في الكبير (٣/١٦٥-١٦٧).

(٢) البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١)، من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم.

(٣) البخاري (١٤٦٨)، ومسلم (٩٨٣)، من حديث أبى هريرة.

(٤) منكر: رواه الطبراني في تفسيره (١٠/١٨٩)، قال الهيثمي في المجمع (٧/٣٢): رواه الطبراني وفيه على بن يزيد الألهاني وهو متروك.

الرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية عن أبي أمامة الباهلي عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري، أنه قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يرزقني مالا، قال: فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه» قال: ثم قال مرة أخرى فقال: «أما ترضى أن تكون مثل نبي الله؟ - فوالذي نفسي بيده لو شئت أن تسير الجبال معي ذهاباً وفضة لسارت» قال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالا» قال فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود فضافت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما، ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة، وهي تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة، فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار فقال رسول الله ﷺ: «ما فعل ثعلبة؟» فقالوا: يا رسول الله اتخذ غنما فضافت عليه المدينة، فأخبروه بأمره، فقال: «يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة».

وانزل الله جل ثناؤه ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ الآية [التوبة: 103]، قال: ونزلت فرائض الصدقة فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة. رجلاً من جهينة ورجلاً من سليم وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين.

وقال لهما: «مرا بشعلبة ويفلان - رجل من بنى سليم - فخذنا صدقاتهما» فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية ما أدري ما هذا؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلى فانطلقا وسمع بهما السلمى فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بهما، فلما راوها قالوا ما يجب عليك هذا وما نريد أن نأخذ هذا منك، فقال: بلى فخذوها فإن نفسي بذلك طيبة وإنما هي لي، فأخذاها منه فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرا بثعلبة فقال: أروني كتابكما فنظر فيه فقال ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى أرى رأيي، فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ فلما رآهما قال: «يا ويح ثعلبة» قبل أن يكلمهما ودعا للسلمى بالبركة فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمى، فأنزل الله عز وجل ﴿وَوَيْتَهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَهُمْ مَا كُنَّا مِنْكُمْ لِنُضَلِّهِمْ لَتَصَلِّوْا لَتَصَلِّوْا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَسَاءَ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ الآية، قال وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته، فقال: إن الله منعي أن أقبل منك صدقتك، فجعل يحثو على رأسه التراب، فقال له رسول الله ﷺ: «هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني» فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته رجع إلى منزله، فقبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئاً، ثم أتى أبا بكر رضى الله عنه حين استخلف فقال قد علمت منزلي من رسول الله ﷺ وموضعي من الأنصار فاقبل صدقتي، فقال أبو بكر لم يقبلها منك رسول الله ﷺ وأبى أن يقبلها، فقبض أبو بكر ولم يقبلها.

فلما ولي عمر رضى الله عنه أتاه فقال: يا أمير المؤمنين أقبل صدقتي فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وأنا أقبلها منك؟ فقبض ولم يقبلها، فلما ولي عثمان رضى الله عنه أتاه فقال: أقبل صدقتي فقال لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك؟ فلم يقبلها منه فهلك ثعلبة في خلافة عثمان، وقوله تعالى: ﴿يَسَاءَ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ الآية، أى أعقبهم

النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم كما في الصحيحين^(١) عن رسول الله ﷺ أنه قال «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان» وله شواهد كثيرة، والله أعلم. وقوله: ﴿أَلَمْ يَلْمُوكَ أَنَّهُ قَالَ سَبَّحْتَ رَبَّهُمْ وَإِنَّمَا كُنَّا مِنْكُمْ مِنَ النَّاسِ نَاظِرِينَ﴾ يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها فإنه أعلم بهم من أنفسهم، لأنه تعالى علام الغيوب أي يعلم كل غيب وشهادة وكل سر ونجوى ويعلم ما ظهر وما بطن.

﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

وهذه أيضًا من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبتهم ولمزهم في جميع الأحوال حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا هذا مرأه، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغنى عن صدقة هذا، كما روى البخاري^(٢) حدثنا عبيد الله بن سعيد، حدثنا أبو النعمان البصرى، حدثنا شعبة عن سليمان عن أبي وائل عن أبي مسعود رضى الله عنه قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا: مرأه، وجاء رجل فتصدق بصاع: فقالوا إن الله لغنى عن صدقة هذا. فنزلت ﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ الآية. وقد رواه مسلم^(٣) أيضًا في صحيحه من حديث شعبة به.

وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا يزيد ثنا الجريري عن أبي السليل قال: وقف علينا رجل في مجلسنا بالبقيع فقال: حدثني أبي أو عمي أنه رأى رسول الله ﷺ بالبقيع وهو يقول: «من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة؟» قال: فحللت من عمامتي لوثا أو لوئين وأنا أريد أن أتصدق بهما، فأدركني ما يدرك ابن آدم فعددت عليّ عمامتي، فجاء رجل لم أر بالبقيع رجلا أشد منه سوادًا ولا أصغر منه ولا أدمّ بعين منه ببعير ساقه لم أر بالبقيع ناقة أحسن منها فقال: يا رسول الله أصدقة؟ قال: «نعم» قال: دونك هذه الناقة، قال فلمزه رجل فقال: هذا يتصدق بهذه فو الله لهي خير منه. قال: فسمعها رسول الله ﷺ فقال «كذبت بل هو خير منك ومنها» ثلاث مرات، ثم قال: «ويل لأصحاب المثين من الإبل» ثلاثًا قالوا إلا من يا رسول الله؟ قال: «إلا من قال بالمال هكذا وهكذا» وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله ثم قال: «قد أفلح المزهده المجهد» ثلاثًا. المزهده في العيش، المجهد في العبادة، وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية قال: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ وجاءه رجل من الأنصار بصاع من طعام، فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء، وقالوا: إن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا الصاع^(٥).

(١) البخاري برقم (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة.

(٢) البخاري برقم (١٤١٥). (٣) مسلم برقم (١٠١٨).

(٤) ضعيف: المسند (١٩٨٤٨) قال الهيثمي في المجمع (١٢١/٣): رواه أحمد وفيه رجل لم يسم.

(٥) رواه الطبري في تفسيره (١٩٤/١٠).

وقال العوفي عن ابن عباس: إن رسول الله خرج إلى الناس يوماً فنادى فيهم أن اجمعوا صدقاتكم، فجمع الناس صدقاتهم، ثم جاء رجل من آخوهم بصاع من تمر، فقال: يا رسول الله هذا صاع من تمر بت ليلتي أجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما وأتيتك بالآخر، فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات، فسخر منه رجال وقالوا: إن الله ورسوله لغنيان عن هذا وما يصنعان بصاعك من شيء، ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال لرسول الله ﷺ: هل بقي أحد من أهل الصدقات؟ فقال رسول الله ﷺ: «لم يبق أحد غيرك» فقال له عبد الرحمن بن عوف فإن عندي مائة أوقية من ذهب في الصدقات، فقال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمجنون أنت؟ قال ليس بي جنون، قال أفعلت ما فعلت؟ قال: نعم مالى ثمانية آلاف أما أربعة آلاف فأقرضها ربي وأما أربعة آلاف فلى، فقال له رسول الله ﷺ «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت» ولمزه المنافقون فقالوا والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته إلا رياء وهم كاذبون إنما كان به متطوعاً، فأنزل الله عز وجل وعذر صاحبه المسكين الذى جاء بالصاع من التمر فقال تعالى فى كتابه: ﴿الَّذِينَ يَكْرِهُونَ الْمَطْوُوعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ الآية، وهكذا روى عن مجاهد وغير واحد وقال ابن إسحاق: كان من المطوعين من المؤمنين فى الصدقات عبد الرحمن بن عوف تصدق بأربعة آلاف درهم وعاصم بن عدى أخو بنى العجلان، وذلك أن رسول الله ﷺ رغب فى الصدقة وحض عليها فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف وقام عاصم بن عدى وتصدق بمائة وسق من تمر فلمزوهما وقالوا: ما هذا إلا رياء، وكان الذى تصدق بجهد أبو عقيل أخو بنى أنيف الأراشى حليف بنى عمرو بن عوف، أتى بصاع من تمر فأفرغه فى الصدقة فتضاحكوا به وقالوا: إن الله لغنى عن صاع أبى عقيل.

وقال الحافظ أبو بكر البزار^(١): حدثنا طلوت بن عباد، حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبى سلمة عن أبيه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تصدقوا فإنى أريد أن أبعث بعثاً» قال فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال يا رسول الله: عندي أربعة آلاف، ألفين أقرضهما ربي وألفين لعيالى، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت وبارك لك فيما أمسكت»، وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر فقال يا رسول الله: أصبت صاعين من تمر صاعاً أقرضه لربي وصاعاً لعيالى، قال فلمزه المنافقون وقالوا: ما أعطى الذى أعطى ابن عوف إلا رياء، وقالوا: ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا؟ فأنزل الله ﴿الَّذِينَ يَكْرِهُونَ الْمَطْوُوعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾، ثم رواه عن أبى كامل عن أبى عوانة عن عمر بن أبى سلمة عن أبيه مرسلًا، قال ولم يسنده أحد إلا طلوت.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير^(٢): حدثنا ابن وكيع، حدثنا زيد بن الحباب عن موسى بن عبيدة، حدثنى خالد بن يسار عن ابن أبى عقيل عن أبيه، قال: بت أجر الجرير على ظهري على صاعين من تمر، فانقلبت بأحدهما إلى أهلى يتبلغون به وجئت بالآخر أتقرب به إلى رسول الله ﷺ فأتيته فأخبرته،

(١) قال الهيثمي فى مجمع الزوائد (٣٢/٧): فيه عمر بن أبى سلمة وثقه الصجل وأبو خيشمة وابن حبان وضعفه شعبة وغيره، وبقية رجالهما ثقات.

(٢) تفسير الطبري (١٠/١٩٦).

فقال: «انثرو في الصدقة» قال فسخر القوم وقالوا لقد كان الله غنياً عن صدقة هذا المسكين، فأنزل الله ﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ الآية، وكذا رواه الطبراني^(١) من حديث زيد بن حباب به، وقال: اسم أبي عقيل حباب ويقال عبد الرحمن بن عبد الله بن ثعلبة، وقوله: ﴿يَسْحَرُونَ مِنْهُمْ سِحْرَ اللَّهِ مِنْهُمْ﴾ هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين، لأن الجزء من جنس العمل فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً لأن الجزء من جنس العمل.

﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار وأنه لو استغفر لهم ولو سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، وقد قبل إن السبعين إنما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم، لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها، وقيل بل لها مفهوم كما روى العوفي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لما نزلت هذه الآية: أسمع ربي قد رخص لي فيهم فوالله لأستغفرون لهم أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم» فقال الله من شدة غضبه عليهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٢) الآية [المنافقون: ٦]. وقال الشعبي لما ثقل عبد الله بن أبي انطلق ابنه إلى النبي ﷺ فقال: إن أبي قد احتضر فأحب أن تشهده وتصلى عليه فقال له النبي ﷺ: «ما اسمك؟» قال: الحباب بن عبد الله قال: «بل أنت عبد الله بن عبد الله إن الحباب اسم شيطان»، قال: فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عرق وصلّى عليه فقيل له: أتصلّى عليه وهو منافق؟ فقال: «إن الله قال ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ ولأستغفرون لهم سبعين وسبعين» وكذا روى عن عروة بن الزبير ومجاهد بن جبر وقتادة بن دعامة ورواه ابن جرير^(٣) بأسانيد.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾^(٤) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

يقول تعالى ذاماً للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ غزوة تبوك، وفرحوا بقعودهم بعد خروجه ﴿وَكْرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ معه ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا﴾ أي بعضهم لبعض ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر عند طيب الظلال والثمار، فلماذا قالوا ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تصيرون إليها بمسبب مخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فرتم منه من الحر بل أشد حراً من النار، كما قال الإمام مالك^(٤) عن أبي

(١) الطبراني في الكبير (٤/٤٥) برقم (٣٥٩٨) قال الهيثمي في المجمع (٧/٣٣): بن يسار لم أجد من وثقه ولا من

جرحه. (٢) تفسير ابن جرير (١٠/١٩٦).

(٤) موطأ مالك (١٨٧٢).

(٣) تفسير ابن جرير (١٠/١٩٩).

الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نار بنى آدم التي يوقدون بها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» فقالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية؟ فقال: «إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً» أخرجاه في الصحيحين^(١) من حديث مالك به، وقال الإمام أحمد^(٢): «حدثنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد» وهذا أيضاً إسناده صحيح، وقد روى الإمام أبو عيسى الترمذى وابن ماجه عن عباس الدوري^(٣)، وعن يحيى بن أبي بكير عن شريك عن عاصم عن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوقد الله على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة، حتى اسودت، فهي سوداء كالليل المظلم» ثم قال الترمذى: لا أعلم أحداً رفعه غير يحيى، كذا قال، وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه، عن إبراهيم بن محمد بن محمد بن الحسين بن مكرم عن عبيد الله بن سعد عن عمه عن شريك وهو ابن عبد الله النخعي به.

وروى أيضاً ابن مردويه، من رواية مبارك بن فضالة عن ثابت عن أنس قال: تلا رسول الله ﷺ ﴿نَارًا تَوَدُّهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ﴾ [التحریم: ٦] قال: «أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، وألف عام حتى احمرت، وألف عام حتى اسودت، فهي سوداء كالليل لا يضيء لهبها»، وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني^(٤) من حديث تمام بن نجیح، وقد اختلف فيه عن الحسن عن أنس رفعه «لو أن شرارة بالمشرق - أى من نار جهنم - لوجد حرها من المغرب» وروى الحافظ أبو يعلى^(٥)، عن إسحاق بن أبي إسرائيل عن أبي عبيدة الحداد عن هشام بن حسان عن محمد بن شبيب عن جعفر بن أبي وحشية عن سعيد بن جبیر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان في هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون وفيهم رجل من أهل النار فتنفس فأصابهم نفسه لاحترق المسجد ومن فيه فريب، وقال الأعمش عن أبي إسحاق عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لمن له نعلان وشراكان من نار جهنم يغلى منهما دماغه كما يغلى المرجل، لا يرى أن أحداً من أهل النار أشد عذاباً منه وإنه أهونهم عذاباً» أخرجاه في الصحيحين^(٦) من حديث الأعمش، وقال مسلم أيضاً^(٧): «حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا زهير بن محمد عن سهيل بن أبي صالح عن النعمان بن أبي عياش عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى

(١) البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣). (٢) صحيح: المسند (٧٢٨٣).

(٣) ضعيف: الترمذى (٢٥٩١)، ابن ماجه (٤٣٢٠). انظر: ضعيف الجامع رقم (٢١٢٥).

(٤) الطبراني في الأوسط (٨٧/٤)، برقم (٣٦٨١). قال المنذري في الترغيب والترهيب (٢٥٠/٤): في إسناده احتمال للفحش.

(٥) حسن: مسند أبي يعلى (٢٢/١٢)، برقم (٦٦٧٠) قال المنذري في الترغيب والترهيب (٢٥٠/٤): إسناده حسن، وفي متنه نكارة.

(٦) البخاري (٦٥٦٢)، مسلم (٢١٣) من حديث النعمان.

تنبيه: ليس في صحيح البخاري عن الأعمش، هو في مسلم فقط.

(٧) مسلم (٢١١).

أهل النار عذاباً يوم القيامة يتعمل بنقلين من نار يغلى دماغه من حرارة نعليه، وقال الإمام أحمد (١):
 حدثنا يحيى عن ابن عجلان، سمعت أبي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «إن أدنى أهل النار عذاباً
 رجل يجعل له نعلان يغلى منهما دماغه» وهذا إسناد جيد قوى رجاله على شرط مسلم والله أعلم،
 والأحاديث والآثار النبوية فى هذا كثيرة، وقال الله تعالى فى كتابه العزيز ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَنفٌ لُّشْرَى﴾
 [المارج: ١٥-١٦] وقال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَمَّ مَتَلَبِّحٌ
 مِن حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَبَابَ الْحَمِيمِ﴾ [الحج: ١٩-٢٢] وقال تعالى
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]
 وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أى لو أنهم يفقهون ويفهمون
 لنفروا مع الرسول فى سبيل الله فى الحر ليقبوا به من حر جهنم الذى هو أضعاف أضعاف هذا ولكنهم
 كما قال الآخر:

كالمستجير من الرمضاء بالنار

وقال الآخر:

عمرك بالحماية أفنيته
 وكان أولى لك أن تنقي
 مخافة البارد والحرار
 من المعاصى حذر النار

ثم قال تعالى جل جلاله متوعداً لهؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَتَكَبَّرُوا كِبِيرًا
 جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس: الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاءوا، فإذا
 انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عز وجل استأنفوا بكاء لا ينقطع أبداً، وكذا قال أبو رزين والحسن
 وقتادة والربيع بن خثيم وحنون للعقيلي وزيد بن أسلم.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى (٢): حدثنا عبد الله بن عبد الصمد بن أبى خدش، حدثنا
 محمد بن حميد عن ابن المبارك عن عمران بن زيد، حدثنا يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال:
 سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس ابكوا فإن لم تبكوا فتابكوا فإن أهل النار يبكون حتى تسيل
 دموعهم فى وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون، فلو أن سفناً
 أرخيت فيها لجرت» ورواه ابن ماجه (٣) من حديث الأعمش عن يزيد الرقاشى به.

وقال الحافظ أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا: حدثنا محمد بن عباس، حدثنا حماد
 الجزرى عن زيد بن ربيع رفعه، قال: إن أهل النار إذا دخلوا النار بكوا الدموع زمناً ثم بكوا القيح
 زمناً، قال: فتقول لهم الخزنة يا معشر الأشقياء تركتم البكاء فى الدار المرحوم فيها أهلها فى الدنيا هل
 تجدون اليوم من تستغيثون به؟ قال: فيرفعون أصواتهم يا أهل الجنة يا معشر الآباء والأمهات والأولاد
 خرجنا من القبور عطاشاً وكنا طول الموقف عطاشاً ونحن اليوم عطاش، فأفيضوا علينا من المله أو مما
 رزقكم الله، فيدعون أربعين سنة لا يجيبهم، ثم يجيبهم ﴿إِنَّكَرْنَا كُتُوبًا﴾ فيأسون من كل خير.

(١) صحيح: المسند (٩٣٦٩).

(٢) حسن لغيره: مسند أبى يعلى (١٦١/٧) برقم (٤١٣٤).

(٣) حسن: ابن ماجه (٤٣٢٤). انظر السلسلة الصحيحة برقم (١٦٧٩).

وقد روى من حديث عمر بن الخطاب نفسه أيضًا بنحو من هذا، فقال الإمام أحمد^(١): حدثنا يعقوب، حدثنا أبي عن ابن إسحاق، حدثني الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس، قال: سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لما توفي عبد الله بن أبي، دُعِيَ رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام إليه فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قمت فى صدره فقلت يا رسول الله أعلى عدو الله عبد الله بن أبي القائل يوم كذا: كذا وكذا يعدد أيامه؟ قال: ورسول الله ﷺ يتبسم، حتى إذا أكثرت عليه فقال: «أخر عنى يا عمر، إني خيرت فاخترت، قد قيل لى ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]. لو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت» قال ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره حتى فرغ منه، قال: فعجبت من جرأتى على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم. قال فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان ﴿وَلَا تَصَلَّىٰ عَلٰٓى أَحَدٍ مِّنْهُنَّ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِي سَفَوَاتٍ﴾. فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل. وهكذا رواه الترمذى^(٢) فى التفسير من حديث محمد بن إسحاق عن الزهري به، وقال حسن صحيح، ورواه البخارى^(٣) عن يحيى بن بكير عن الليث بن عقيل عن الزهري به فذكر مثله، وقال: «أخر عنى يا عمر» فلما أكثرت عليه قال: «إنى خيرت فاخترت ولو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها» قال فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف، فلم يلبث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة ﴿وَلَا تَصَلَّىٰ عَلٰٓى أَحَدٍ مِّنْهُنَّ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦ﴾ الآية، فعجبت بعد من جرأتى على رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ أعلم.

وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا محمد بن أبي عبيد، حدثنا عبد الملك عن أبي الزبير عن جابر قال: لما مات عبد الله بن أبي أتى ابنه النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنك إن لم تأت لم نزل نعيير بهذا، فاتاه النبي ﷺ فوجده قد أدخل فى حفرة فقال: «أفلا قبل أن تدخلوه؟» فأخرج من حفرة وتفل عليه من ريقه من قرنه إلى قدمه وألبسه قميصه، ورواه النسائى^(٥) عن أبي داود الحرانى عن يعلى بن عبيد عن عبد الملك وهو ابن أبي سليمان به، وقال البخارى^(٦): حدثنا عبد الله بن عثمان، أخبرنا ابن عيينة عن عمرو سمع جابر بن عبد الله قال: أتى النبي ﷺ عبد الله بن أبي بعد ما أدخل فى قبره فأمر به فأخرج ووضع على ركبته ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه والله أعلم. وقد رواه أيضًا فى غير موضع مع مسلم والنسائى^(٧) من غير وجه، عن سفيان بن عيينة به. وقال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار فى مسنده: حدثنا عمرو بن على، حدثنا يحيى، حدثنا مجالد، حدثنا عامر، حدثنا جابر «ح» وحدثنا يوسف بن موسى، حدثنا عبد الرحمن بن مغراء

(١) صحيح : المسند (٩٦).

(٢) صحيح : الترمذى (٣٠٩٧).

(٣) البخارى برقم (١٣٦٦)، (٤٦٧١).

(٤) صحيح : المسند (١٤٥٦٨).

تبيه : فى مسند أحمد قال : حدثنا محمد بن بكر فليعلم.

(٥) صحيح : النسائى فى الكبرى (٤٨١/٥) برقم (٩٦٦٥).

(٦) البخارى (١٢٧٠)، (١٣٥٠)، (٥٧٩٥).

(٧) مسلم (٢٧٧٣)، والنسائى (١٩٠١)، (١٩٠٢)، (٢٠١٩).

الدوسي، حدثنا مجالد عن الشعبي عن جابر قال: لما مات رأس المنافقين قال يحيى بن سعيد بالمدينة فلوصى أن يصلى عليه النبي ﷺ فجاء ابنه إلى النبي ﷺ فقال: إن أبي أوصى أن يكفن في قميصك وهذا الكلام في حديث عبد الرحمن بن مغراء، قال يحيى في حديثه: فصلى عليه وألبسه قميصه فأنزله الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّيْ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تُقَمِّعْ عَلَيْهِ قَبْرَهُ﴾ وزاد عبد الرحمن: وخلع النبي ﷺ قميصه فأعطاه إياه ومشى فصلى عليه وقام على قبره، فاتاه جبريل عليه السلام لما ولى قال ﴿وَلَا تُصَلِّيْ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تُقَمِّعْ عَلَيْهِ قَبْرَهُ﴾ وهذا إسناد لا بأس به وما قبله شاهد له.

وقال الإمام أبو جعفر الطبري (١): حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا حماد بن سلمة عن يزيد الرقاشي عن أنس، أن رسول الله ﷺ أراد أن يصلى على عبد الله بن أبي فأخذ جبريل بشوبه وقال ﴿وَلَا تُصَلِّيْ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تُقَمِّعْ عَلَيْهِ قَبْرَهُ﴾ ورواه الحافظ أبو يعلى في مسنده (٢) من حديث يزيد الرقاشي وهو ضعيف.

وقال قتادة أرسل عبد الله بن أبي إلى رسول الله ﷺ وهو مريض فلما دخل عليه قال له النبي ﷺ: «أهلكك حب يهود» قال: يا رسول الله إنما أرسلت إليك لتستغفر لي ولم أرسل إليك لتؤنّبني، ثم سأله عبد الله إن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه إياه وصلى عليه وقام على قبره، فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَا تُصَلِّيْ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تُقَمِّعْ عَلَيْهِ قَبْرَهُ﴾، وقد ذكر بعض السلف أنه إنما ألبسه قميصه لأن عبد الله بن أبي لما قدم العباس طُلب له قميص فلم يوجد على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أبي لأنه كان ضيقاً طويلاً ففعل ذلك به رسول الله ﷺ مكافأة له فإله أعلم. ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلى على أحد من المنافقين ولا يقوم على قبره، كما قال الإمام أحمد (٣): حدثنا يعقوب، حدثنا أبي عن أبيه، حدثني عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا دعى لجنائز سأل عنها، فإن أتى عليها خيراً قام فصلى عليها، وإن أتى عليها غير ذلك قال لأهلها «شأنكم بها» ولم يصل عليها، وكان عمر بن الخطاب لا يصلى على جنازة من جهل حاله حتى يصلى عليها حذيفة بن اليمان لأنه كان يعلم أعيان المنافقين، قد أخبره بهم رسول الله ﷺ، ولهذا كان يقال له صاحب السر الذي لا يعلمه غيره أي من الصحابة.

وقال أبو عبيد في كتاب الغريب في حديث عمر: إنه أراد أن يصلى على جنازة رجل فمرزه حذيفة كأنه أراد أن يصدّه عن الصلاة عليها. ثم حكى عن بعضهم أن المرز بلغه أهل اليمامة هو القرص بأطراف الأصابع، ولما نهى الله عز وجل عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم، كان هذه الصنيع من أكبر القربات في حق المؤمنين فشرع ذلك، وفي فعله الأجر الجزيل كما ثبت في الصحيح (٤) وغيرها من حديث أبي هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط، ومن شهدا حتى تدفن فله قيراطان» قيل وما القيراطان؟ قال

(١) ضعيف: تفسير الطبري (٢٠٥/١٠).

(٢) إسناده ضعيف: مسند أبي يعلى (١٤٥/٧) برقم (٤١١٢). في إسناده يزيد الرقاشي وهو ضعيف.

(٣) صحيح: المسند (٢٢٠٤٩). انظر مجمع الزوائد (٣، ٣، ٤).

(٤) البخاري (٣٣٢٥)، مسلم (٩٤٥).

«أصغرهما مثل أحد» وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات .

فقد قال أبو داود ^(١): حدثنا إبراهيم بن موسى الرازي، أخبرنا هشام عن عبد الله بن بحير عن هانيء، وهو أبو سعيد البربري مولى عثمان بن عفان عن عثمان رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل» انفراد بإخراجه أبو داود رحمه الله .

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة ولله الحمد والمنة .

﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِهَا لِلَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّلَاقِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْمُقْتَدِينَ ﴿٤٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى منكراً وذاماً للمتخلفين عن الجهاد الناقلين عنه مع القدرة عليه ووجود السعة والطول . واستأذنوا الرسول فى القعود وقالوا ﴿ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْمُقْتَدِينَ﴾ ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود فى البلد مع النساء، وهن الخوالف بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلاماً، كما قال تعالى عنهم فى الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا جَاءَ لِقَاؤُهُمْ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَبَعًا أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُضْحِقُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذُكِبَ لِقَاؤُهُمْ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ جِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩] أى علت ألسنتهم بالكلام الحدّ القوي فى الأمن، وفى الحرب أجبن شىء، وكما قال الشاعر:

أفى السلم أعياراً جفاءً وغلظة وفى الحرب أشباه النساء العوارك؟

وقال تعالى فى الآية الأخرى ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُخْتَكِمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلِهِمْ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ قَالُوا كَذَّبُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ الآية [محمد: ٢٠-٢٢] .

وقوله ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أى بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول فى سبيل الله ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أى لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه .

﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلِيَتِكُمْ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأَوْلِيَتِكُمْ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ أَفْزَاؤُ الْعَظِيمِ﴾

لما ذكر تعالى ذم المنافقين بين ثناءه على المؤمنين وما لهم فى آخرتهم، فقال ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا﴾ إلى آخر الآيتين من بيان حالهم وما لهم، وقوله: ﴿وَأَوْلِيَتِكُمْ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ أى فى الدار الآخرة فى جنات الفردوس والدرجات العلى .

﴿وَجَلَّةَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤَدَّ عَنْهُمْ وَقَعْدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

ثم بين تعالى حال ذوى الأعذار فى ترك الجهاد الذين جاءوا رسول الله ﷺ يمتدرون إليه ويبينون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة. قال الضحاك عن ابن عباس، إنه كان يقرأ «وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ» بالتخفيف ويقول: هم أهل العذر. وكذا روى عن ابن عيينة عن حميد عن مجاهد سواء، قال ابن إسحاق: وبلغنى أنهم نفر من بنى غفار منهم: خفاف بن إيماء بن رخصة، وهذا القول هو الأظهر فى معنى الآية، لأنه قال بعد هذا «وَقَعْدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ» أى لم يأتوا فيعتدروا، وقال ابن جريج عن مجاهد «وَجَلَّةَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ» قال: نفر من بنى غفار جاءوا فاعتدروا فلم يعذرهم الله، وكذا قال الحسن وقتادة ومحمد بن إسحاق والقول الأول أظهر والله أعلم، لما قدمنا من قوله بعده «وَقَعْدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ» أى وقعد آخرون من الأعراب عن المعجى للاعتذار ثم أوعدهم بالعذاب الأليم فقال: «سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا بِبَيْتِنَا وَلَهُمْ أَعْيُنَ رَشُوا إِيَّانَا يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

ثم بين تعالى الأعذار التى لا حرج على من قعد معها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه وهو الضعف فى التركيب الذى لا يستطيع معه الجلاد فى الجهاد، ومنه العمى والعرج ونحوهما، ولهذا بدأ به ومنها ما هو عارض بسبب مرض عن له فى بدنه شغله عن الخروج فى سبيل الله أو بسبب فقره لا يقدر على التجهز للحرب، فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا فى حال قعودهم ولم يرجفوا بالناس ولم يشبطوهم وهم محسنون فى حالهم هذا، ولهذا قال: «مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ» وقال سفيان الثورى عن عبد العزيز بن رفيع عن أبى ثمامة رضى الله عنه قال: قال الحواريون يا روح الله أخبرنا عن الناصح ليه؟ قال الذى يؤثر حق الله على حق الناس، وإذا حدث له أمران أو بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة، بدأ بالذى للآخرة ثم تفرغ للذى للدنيا.

وقال الأوزاعى: خرج الناس للاستسقاء فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال، يا معشر من حضر أستم مقربين بالإساءة؟ قالوا اللهم نعم، فقال اللهم إنا نسمعك تقول: «مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ» اللهم وقد أقرنا بالإساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقنا، ورفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا، وقال قتادة نزلت هذه الآية فى عائذ بن عمرو المزنى، وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا هشام بن عبيد الله الرازى، حدثنا ابن جابر عن ابن فروة عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ فكانت أكتب براءة، فإنى لواضع القلم على أذننى إذ أمرنا بالقتال،

فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه، إذ جاء أعمى فقال: كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟ فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ إلى آخر الآية، وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية، وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن يبتعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل المزني فقالوا: يا رسول الله احملنا فقال لهم: «و الله لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا ولهم بكاء وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدوا نفقة ولا محملاً. فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه فقال ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ إلى قوله ﴿فَهُمْ لَا يَلْمُونَ﴾.

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ نزلت في بني مقرن من مزينة، وقال محمد بن كعب: كانوا سبعة نفر من بني عمرو بن عوف سالم بن عوف، ومن بني واقف هرمي بن عمرو، ومن بني مازن بن النجار: عبد الرحمن بن كعب، ويكنى أبا ليلى، ومن بني المعلى: سلمان بن صخر، ومن بني حارثة: عبد الرحمن بن يزيد أبو عبلة وهو الذي تصدق بعرضه فقبله الله منه، ومن بني سلمة عمرو بن غنمة وعبد الله بن عمرو المزني.

وقال محمد بن إسحاق في سياق غزوة تبوك: ثم إن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاء وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، من بني عمرو بن عوف: سالم بن عمير وعلبة بن زيد أخو بني حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب أخو بني مازن بن النجار، وعمرو بن الحمام بن الجموح أخو بني سلمة وعبد الله بن المغفل المزني، وبعض الناس يقول بل هو عبد الله بن عمرو المزني، وهرمي بن عبد الله أخو بني واقف وعرباض بن سارية الفزاري، فاستحملوا رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة فقال ﴿لَا أجد ما أحلكم عليكم تولوا وأعنتهم نفيس من الذم حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن الأودي، حدثنا وكيع عن الربيع عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خلفتم بالمدينة أقواما ما أنفقتم من نفقة ولا قطعتم واديا ولا نلتهم من عدو نيلا إلا وقد شركوكم في الأجر» ثم قرأ ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية، وأصل هذا الحديث في الصحيحين^(١) من حديث أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة أقواما ما قطعتم واديا ولا سرتهم سيرا إلا وهم معكم» قالوا وهم بالمدينة؟ قال: «نعم حسبهم العذر». وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خلفتم بالمدينة رجالا ما قطعتم واديا ولا سلكتم طريقا إلا شركوكم في الأجر، حسبهم المرض» ورواه مسلم وابن ماجه^(٣) من طرق عن الأعمش به ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأنبهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرجال ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَلْمُونَ﴾.

(١) البخاري (٢٨٣٩)، ولم يروه مسلم من حديث أنس، وإنما رواه من حديث جابر (١٩١١).

(٢) صحيح: المسند (١٣٧٩٦) (٣) مسلم (١٩١١)، وابن ماجه (٢٧٦٥).

﴿يَمْتَدِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَمْتَدِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ بَيَّأَنَ اللَّهُ مِنْ أَنْبَاءِكُمْ
وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابِ الْعَذَابِ وَالشَّهَادَةُ فَيَتَّبِعُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ
وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢﴾ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا
عَنْهُمْ فَلَنْ يَرْضَىٰ عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعترفون إليهم ﴿قُلْ لَا تَمْتَدِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ
لَكُمْ﴾ أي لن نصدقكم ﴿قَدْ بَيَّأَنَ اللَّهُ مِنْ أَنْبَاءِكُمْ﴾ أي قد أعلمنا الله أحوالكم ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُ﴾ أي سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابِ الْعَذَابِ وَالشَّهَادَةُ فَيَتَّبِعُكُمْ بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيخبركم بأعمالكم خيرا وشرها ويجزيكم عليها، ثم أخبر عنهم أنهم سيخلفون
لكم معتذرين ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ فلا تؤنبوهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ احتجازا لهم ﴿إِنَّهُمْ رَجِسٌ﴾ أي خبثاء نجس
بواطنهم واعتقاداتهم، ﴿وَمَا وَنَهُمْ﴾ في آخرتهم ﴿جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي من الآثام
والخطايا، وأخبر أنهم وإن رضوا عنهم بحلفهم لهم ﴿فَلَنْ يَرْضَىٰ عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي
الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسوله، فإن الفسق هو الخروج، ومنه سميت الفأرة فوسقة لخروجها
من جحرها للإفساد، ويقال فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُرِّ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ ذَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٤﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ
قُرْبَانًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَانٌ لَهُمْ سَبَّحْتَهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ
رَحِيمٌ﴾

أخبر تعالى أن في الأعراب كفارا ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد
﴿وَأَجْدَرُ﴾، أي أحرى ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ كما قال الأعمش عن إبراهيم قال:
جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند، فقال
الأعرابي: والله إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لترييني. فقال زيد: ما يريك من يدي إنها الشمال؟
فقال الأعرابي: والله ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال؟ فقال زيد بن صوحان: صدق الله ﴿الْأَعْرَابُ
أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ وقال الإمام أحمد (١): حدثنا عبد
الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان عن أبي موسى عن وهب بن منبه عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ
قال: (من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتن) ورواه أبو داود والترمذي
والنسائي (٢) من طرق عن سفيان الثوري به، وقال الترمذي حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث

(١) صحيح: للسند (٣٣٥٢).

(٢) صحيح: أبو داود (٢٨٥٩)، والترمذي (٢٢٥٦)، والنسائي (٤٣٠٩).

الثورى، ولما كانت الغلظة والجفاء فى أهل البوادى لم يبعث الله منهم رسولا، وإنما كانت البعثة من أهل القرى كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩] ولما أهدى ذلك الأعرابى تلك الهدية لرسول الله ﷺ فرد عليه أضعافها حتى رضى، قال: «لقد هممت أن لا أقبل هدية إلا من قرشى أو ثقفى أو أنصارى أو دوسى»^(١)؛ لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن: مكة والطائف والمدينة واليمن، فهم ألطف أخلاقا من الأعراب لما فى طباع الأعراب من الجفاء.

(حديث الأعرابى فى تقبيل الولد) قال مسلم^(٢): حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة وأبو كريب قالوا: ثنا أبو أسامة وابن نمير عن هشام بن أبىه عن عائشة قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ قالوا نعم، قالوا لكننا والله ما نقبل، فقال رسول الله ﷺ: «وَأَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللَّهُ نَزَعَ مِنْكُمْ الرَّحْمَةَ» وقال ابن نمير: «من قلبك الرحمة». وقوله ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم، حكيم فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق، لا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته، وأخبر تعالى أن منهم ﴿مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾ أى فى سبيل الله ﴿مَقْرَبًا﴾ أى غرامة وخسارة ﴿وَيُرْتَضِ بِرُؤْيَاكَ الدُّوَابُّ﴾ أى ينتظر بكم الحوادث والآفات ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أى هى منعكسة عليهم والسوء دائر عليهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى سميع لدعاء عباده عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان، وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون فى سبيل الله قرابة يتقربون بها عند الله ويستغنون بذلك دعاء الرسول لهم ﴿إِنَّمَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ أى إلا إن ذلك حاصل لهم ﴿سَيَجْزِيهِمُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم والنعيم المقيم، قال الشعبي: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية، وقال أبو موسى الأشعري وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة، هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ، وقال محمد بن كعب القرظى: مر عمر بن الخطاب برجل يقرأ هذه الآية، ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ فأخذ عمر بيته فقال: من أقرأك هذا؟ فقال: أبى بن كعب، فقال: لا تفارقنى حتى أذهب بك إليه، فلما جاءه قال عمر أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا؟ قال: نعم. قال: وسمعتها من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا، فقال أبى تصديق هذه الآية فى أول سورة الجمعة ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة: ٣] وفى سورة الحشر ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ الآية [الحشر: ١٠]، وفى الأنفال ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا

(١) صحيح: أبو داود (٣٥٣٧)، والترمذي (٣٩٤٥)، والنسائي (٣٧٥٩) من حديث أبى هريرة به.

(٢) مسلم (٢٣١٧).

بِئْسَ بَدَأَ وَهَابِرُوا وَجَاهِدُوا مَعَكُمْ فَأُذِلْتُمْ يَنْكُرُ ﴿٧٥﴾ الآية [الأنفال: ٧٥]، ورواه ابن جرير، قال: وذكر عن الحسن البصرى أنه كان يقرؤها برفع الأنصار عطفًا على ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْآذِينَ﴾ فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضى عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فياويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم أعتى الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبى قحافة رضى الله عنه، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم. عيادًا بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضى الله عنهم؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عن رضى الله عنه ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالى الله ويعادون من يعادى الله وهم متبعون لا مبتدعون ويقتدون ولا يتبتلون، ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون.

﴿وَيَمَنَ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ خَبَرٌ تَعْلَمُهُمْ سَتَعَدُّهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَردُّوهُنَّ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

يخبر تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن فى أحياء العرب ممن حول المدينة منافقين، وفى أهل المدينة أيضًا منافقون ﴿مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ﴾ أى مروا واستمروا عليه، ومنه يقال شيطان مرید، وهارد ويقال تمرد فلان على الله أى عتا وتجبر، وقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ خَبَرٌ تَعْلَمُهُمْ﴾ لا ينافى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَشَاءُ لَأَمَرْنَاكُم بِالْحَمْدِ لَئِن كُنْتُمْ لَآتِينَهَا بِإِسْمِئِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠] لأن هذا من باب التوسم فهم بصفات يعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين، وقد كان يعلم الله فى بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقًا وإن كان يراه صباحًا ومساءً، وشاهد هذا بالصحة ما رواه الإمام أحمد فى مسنده ^(١) حيث قال: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن النعمان بن سالم عن رجل عن جبير بن مطعم رضى الله عنه، قال قلت: يا رسول الله إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة فقال: «لثأبتكم أجوركم ولو كنتم فى جحر ثعلب» وأصغى إليّ رسول الله ﷺ برأسه فقال «إن فى أصحابى منافقين» ومعناه أنه قد يبوح بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بما لا صحة له ومن مثلهم صدر هذا الكلام الذى سمعه جبير بن مطعم، وتقدم فى تفسير قوله ﴿وَهُمْ أَيْمَانُ يَتْلُونَ﴾ [التوبة: ٧٤] أنه ﷺ أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقًا، وهذا تخصيص لا يقتضى أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم، والله أعلم.

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى عمر البيروتى من طريق هشام بن عمار: حدثنا صدقة بن خالد: حدثنا ابن جابر، حدثنى شيخ بيروت يكنى أبا عمر، أظنه حدثنى عن أبى الدرداء أن رجلا يقال له حرملة أتى النبى ﷺ فقال: الإيمان ههنا وأشار بيده إلى لسانه، والنفاق ههنا وأشار بيده إلى قلبه، ولم يذكر الله إلا قليلاً، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل له لسانًا ذاكراً، وقلبًا شاكراً، وارزقه حبي وحب من يحبني، وصير أمره إلى خير» فقال: يا رسول الله إنه كان لى أصحاب من المنافقين وكنت

(١) ضعيف: المسند (١٦٣٢٣). فى إسناده رجل لم يسم وانظر مجمع الزوائد (٥/٢٥٢).

رأساً فيهم أفلا أتيتك بهم؟ قال: «من أتانا استغفرنا له، ومن أصر على دينه فالله أولى به، ولا تخرقن على أحد مستراً»^(١)، قال وكذا رواه أبو أحمد الحاكم عن أبي بكر الباغندي عن هشام بن عمار به، وقال عبد الرزاق^(٢): أخبرنا معمر عن قتادة في هذه الآية أنه قال: ما بال أقوام يتكلفون علم الناس، فلان في الجنة وفلان في النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال لا أدرى لعمري أنت بنفسك أعلم منك بأحوال الناس، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك، قال نبي الله نوح عليه السلام ﴿وَمَا يَلِينُ يَمَّا كَانُوا يَمْلُوكُ﴾ [الشعراء: ١١٢] وقال نبي الله شعيب عليه السلام ﴿يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦] وقال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿لَا تَقْلَقْهُمَنَّ تَقْلَقَهُمْ﴾ وقال السدي^(٣) عن أبي مالك عن ابن عباس في هذه الآية قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً يوم الجمعة فقال: «أخرج يا فلان فلانك منافق، وأخرج يا فلان فلانك منافق» فأخرج من المسجد ناساً منهم فضحهم، فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد فاختاباً منهم حياءً أنه لم يشهد الجمعة وظن أن الناس قد انصرفوا، واختبثوا هم من عمر ظنوا أنه قد علم بأمرهم، فجاء عمر فدخل المسجد فإذا الناس لم يصلوا، فقال له رجل من المسلمين: أبشر يا عمر قد فضح الله المنافقين اليوم، قال ابن عباس: فهذا العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد، والعذاب الثاني عذاب القبر، وكذا قال الثوري عن السدي عن أبي مالك نحو هذا.

وقال مجاهد في قوله ﴿سَمْعَدِيَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ يعني القتل والسبي، وقال في رواية بالجوع وعذاب القبر، ثم يردون إلى عذاب عظيم، وقال ابن جريج عذاب في الدنيا وعذاب في القبر ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ النار، وقال الحسن البصري: عذاب في الدنيا وعذاب في القبر، وقال عبد الرحمن بن زيد: أما عذاب في الدنيا فالأموال والأولاد، وقرأ قول الله: ﴿وَلَا تَحْجَبْ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٨٥] فهذه المصائب لهم عذاب وهي للمؤمنين أجر، وعذاب في الآخرة في النار ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ قال النار، وقال محمد بن إسحاق ﴿سَمْعَدِيَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ قال: هو فيما بلغني ما هم فيه من أمر الإسلام وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسبة، ثم عذابهم في القبور إذا صاروا إليها، ثم العذاب العظيم الذي يردون إليه عذاب الآخرة والخلد فيه، وقال سعيد عن قتادة في قوله: ﴿سَمْعَدِيَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ عذاب الدنيا وعذاب القبر ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ وذكر لنا أن نبي الله ﷺ أسر إلى حذيفة باثني عشر رجلاً من المنافقين، فقال: «سته منهم تكفيهم الدبيلة سراج من نار جهنم يأخذ في كتف أحدهم حتى يفضى إلى صدره، وستة يموتون موتاً»^(٤)، وذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا مات رجل ممن يرى أنه منهم، نظر إلى حذيفة فإن صلى عليه وإلا تركه، وذكر لنا أن عمر قال لحذيفة أنشدك الله أمنهم أنا؟ قال لا ولا أومن منها أحداً بعدك.



(١) ضعيف: قال الهشمي في المجمع (٩/٤٠٢): رواه الطبراني وفيه واو لم يسم، وبقية رجاله ثقات.

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/٢٥٣).

(٣) تفسير الطبري (١١/١٠).

(٤) ضعيف: تفسير الطبري (١١/١١).

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أى ادع لهم واستغفر لهم كما رواه مسلم^(١) فى صحيحه عن عبد الله بن أبى أوفى قال: كان النبى ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم فأتاه أبى بصدقته فقال: «اللهم صل على آل أبى أوفى» وفى الحديث الآخر أن امرأة قالت: يا رسول الله صل عليّ وعلى زوجى، فقال «صلى الله عليك وعلى زوجك»^(٢) وقوله: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لِّمَنَّمْ﴾ قرأ بعضهم صلواتك على الجمع وآخرون قرءوا إن صلواتك على الأفراد ﴿سَكَنٌ لِّمَنَّمْ﴾ قال ابن عباس: رحمة لهم، وقال قتادة وقار، وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أى لدعائك ﴿عَلِيمٌ﴾ أى بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له، قال الإمام أحمد^(٣): حدثنا وكيع، حدثنا أبو العميس عن أبى بكر بن عمرو بن عتبة عن ابن الحذيفة عن أبىه أن النبى ﷺ كان إذا دعا لرجل أصابته وأصابته ولده وولد ولده، ثم رواه^(٤) عن أبى نعيم عن مسعر عن أبى بكر بن عمرو بن عتبة عن ابن الحذيفة، قال مسعر: وقد ذكره مرة عن حذيفة أن صلاة النبى ﷺ لتدرك الرجل وولده وولد ولده.

وقوله ﴿أَلَمْ يَلْمُوهَا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ هذا تهيج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحط الذنوب ويمحصها ويمحقها، وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال، فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيربها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل أحد، كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ كما قال الثورى ووكيع كلاهما عن عباد بن منصور عن القاسم بن محمد، أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتكون مثل أحد»^(٥) وتصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل ﴿أَلَمْ يَلْمُوهَا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ وقوله: ﴿يَتَمَسَّكُ اللَّهُ الزُّبُرًا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦] وقال الثورى والأعمش، كلاهما عن عبد الله بن السائب عن عبد الله بن أبى قتادة قال: قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، إن الصدقة تقع فى يد الله عز وجل قبل أن تقع فى يد السائل، ثم قرأ هذه الآية ﴿أَلَمْ يَلْمُوهَا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ وقد روى ابن عساکر فى تاريخه فى ترجمة عبد الله بن الشاعر السكسكى الدمشقى وأصله حمصى، وكان أحد الفقهاء، روى عن معاوية وغيره، وحكى عنه حوشب بن سيف السكسكى الحمصى قال: غزا الناس فى زمان معاوية رضى الله عنه وعليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فقتل رجل من المسلمين مائة دينار رومية. فلما قفل الجيش ندم وأتى الأمير فأبى أن يقبلها منه وقال: قد تفرق الناس ولن أقبلها منك حتى تأتى الله بها يوم القيامة، فجعل الرجل يستقري الصحابة فيقولون له مثل ذلك، فلما قدم دمشق ذهب إلى معاوية ليقبلها منه فأبى عليه، فخرج من عنده وهو يبكى ويسترجع، فمر بعبد الله بن الشاعر السكسكى فقال له ما يبكيك؟ فذكر له أمره، فقال له: أو مطيعني أنت؟ فقال: نعم، فقال اذهب إلى معاوية فقل له أقبل منى خمسك فادفع إليه عشرين دينارًا وانظر الثمانين الباقية فتصدق بها عن ذلك الجيش، فإن الله يقبل التوبة عن عباده وهو أعلم بأسمائهم ومكانهم، ففعل الرجل، فقال معاوية

(١) البخاري (١٤٩٨)، ومسلم (١٠٧٨).

(٢) صحيح: أبو داود (١٥٣٣).

(٣) المسند (٢٢٧٦٦).

(٤) المسند (٢٢٨٨٥).

(٥) صحيح: الترمذي (٦٦٢)، وأصل الحديث فى الصحيحين: البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤).

رضى الله عنه : لأن أكون أنتيه بها أحب إلى من كل شيء أملكه ، أحسن الرجل .
﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالِينَ وَالشَّهَادَةُ فَتَشْكُرُونَ ﴾
﴿ كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

قال مجاهد : هذا وعيد يعنى من الله تعالى للمخالفين أو امره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول ﷺ وعلى المؤمنين . وهذا كائن لا محالة يوم القيامة كما قال : **﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ تَرْسُومٌ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾** [الحاقة : ١٨] وقال تعالى : **﴿ يَوْمَ تُبَلَّغُ الْأَنبِيَاءُ ﴾** [الطارق : ٩] وقال : **﴿ وَخُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾** [العاديات : ١٠] وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس في الدنيا ، كما قال الإمام أحمد ^(١) : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ أنه قال : **﴿ لو أن أحدكم يعمل في صحرة صماء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان ﴾** وقد ورد : أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ ، كما قال أبو داود الطيالسي ^(٢) : حدثنا الصلت بن دينار عن الحسن بن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : **﴿ إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم في قبورهم ، فإن كان خيراً استبشروا به ، وإن كان غير ذلك قالوا : اللهم ألهمهم أن يعملوا بطاعتك ﴾** .

وقال الإمام أحمد ^(٣) : أنبأنا عبد الرزاق عن سفيان عن سمع أنسًا يقول : قال النبي ﷺ : **﴿ إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات فإن كان خيراً استبشروا به وإن كان غير ذلك قالوا اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا ﴾** .

وقال البخاري ^(٤) قالت عائشة رضی الله عنها : إذا أعجبك حسن عمل امرئ مسلم فقل **﴿ أَعْمَلُوا فَسَيَرَهُ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾** وقد ورد في الحديث شبيه بهذا .

قال الإمام أحمد ^(٥) : حدثنا يزيد ، حدثنا حميد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : **﴿ لا عليكم أن تعجبوا يا أحد حتى تنظروا به يخطم له ، فإن العايل يعمل زماناً من عمره أو برهة من دهره بعمل صالح لو مات عليه لدخل الجنة ثم يتحول فيعمل عملاً سيئاً ، وإن العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيئ لو مات عليه دخل النار ثم يتحول فيعمل عملاً صالحاً ، وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله قبل موته ﴾** قالوا : يا رسول الله وكيف يستعمله ؟ قال : **﴿ يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه ﴾** تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه .

﴿ وَأَخْرُوجُ مُرْجُونَ لِأَنِّي أَنَا يُعَذِّبُهُمْ وَإِنَّمَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغير واحد : هم الثلاثة الذين خلفوا أي عن التوبة ، وهم

(٦) المسند (١٠٨٤٦) ، قال الهيثمي في المجمع (٢٢٥/١٠) : رواه أحمد وأبو يعلى ، وإسنادهما حسن .

(٢) ضعيف : مسند الطيالسي (٢٤٨/١) ، برقم (١٧٩٤) ، في سننه الصلت بن دينار ، وهو متروك .

(٤) ضعيف : المسند (١٢٢٧٢) ، في إسناده رجل مبهم .

(٤) البخاري (٥٠٣/١٣) فتح .

(٥) صحيح : المسند (١١٨٠٤) ، قال الهيثمي في المجمع (٢١١/٧) : رواه أحمد وأبو يعلى والبيزار والطبراني في

الأوسط ورجاله رجال الصحيح .

مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلا وميلا إلى الدعة والحفظ وطيب الثمار والظلال لا شكًا ونفاقًا، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسوارى كما فعل أبو لبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء وأرجىء هؤلاء عن التوبة، حتى نزلت الآية الآتية وهي قوله ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ الآية [التوبة: ١١٧]، ﴿وَعَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذَا سَأَلْتَهُمُ الْأَرْضَ بِمَا رَحَّبَتْ﴾ الآية [التوبة: ١١٨]، كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك.

وقوله ﴿إِنَّا يَعِدُهُمُ وَإِنَّا يَنْوِبُ عَلَيْهِمْ﴾ أى هم تحت عفو الله إن شاء فعل بهم هذا وإن شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، حكيم فى أفعاله وأقواله لا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿وَالَّذِينَ أَخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْمَارًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ شَهِدٌ لِّئِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١٧﴾ لَا نَقَعُ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ مَعًا﴾

سبب نزول هذه الآيات الكريمات، أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر فى الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة فى الجاهلية وله شرف فى الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجرًا إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر، شَرِقَ اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها، وخرج فأرأى كفار مكة من مشركى قريش، فألبهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان وامتنعهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع فى إحداهن رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه، وتقدم أبو عامر فى أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عيتًا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدى شر، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيدًا طريدًا فنالت هذه الدعوة، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر الرسول ﷺ فى ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبى ﷺ فوعده ومناه وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلًا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصدًا له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتى إليهم فيصلى فى مسجدهم

ليحتجوا بصلاته عليه السلام فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشتائية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله» فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه الوحي بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذى أسس من أول يوم على التقوى. فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة، كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾، هم أناس من الأنصار بنوا مسجدًا فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجدًا واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فأتى بجند من الروم وأخرج محمدًا وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبى ﷺ فقالوا له: قد فرغنا من بناء مسجدنا فتحب أن تصلى فيه وتدعونا بالبركة، فأنزل الله عز وجل ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ إلى قوله: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ [التوبة: ١٠٩] وكذا روى عن سعيد بن جبير ومجاهد وعروة بن الزبير وقاتدة وغير واحد من العلماء.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن الزهرى ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبى بكر وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم، قالوا: أقبل رسول الله ﷺ معنى من تبوك حتى نزل بذي أوان - بلد بينه وبين المدينة - ساعة من نهار، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجدًا لذى العلة والحاجة والليله المطيرة والليله الشتائية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه، فقال: «إني على جناح سفر وحال شغل» أو كما قال رسول الله ﷺ «ولو قد قدمنا إن شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا لكم فيه» فلما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بنى سالم بن عوف، ومعن بن عدى أو أخاه عامر بن عدى أخا بلعجلان فقال: «اطلقتنا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهلما وحرقاه» فخرجا سريعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم.

فقال مالك لمعن: أنظرنى حتى أخرج إليك بنار من أهلى، فدخل أهله فأخذ سعفًا من النخل فاشعل فيه نارًا ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾ إلى آخر القصة. وكان الذين بنوه اثني عشر رجلًا: خدام بن خالد من بنى عبد بن زيد أحد بنى عمرو بن عوف، ومن داره أخرج مسجد الشقاقه وثعلبة بن حاطب من بنى عبيد هو إلى بنى أمية بن زيد، ومعتب بن قشير من بنى ضبيعة بن زيد، وأبو حبيبة بن الأزعر من بنى ضبيعة بن زيد، وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف من بنى عمرو بن عوف، وجارية بن عامر وابناه مجمع بن جارية وزيد بن جارية ونبث الحارث وهم من بنى ضبيعة ويخرج، وهم من بنى ضبيعة، وبجاد بن عثمان وهو من بنى ضبيعة، ووديعة بن ثابت، وهو إلى بنى أمية رهط أبى لبابة بن عبد المنذر. وقوله ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾ أى الذين بنوه ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ﴾ أى ما أردنا ببنيانه إلا خيرًا ورفقًا بالناس، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أى فيما قصدوا وفيما نوا، وإنما بنوه ضرارًا للمسجد قباء وكفرًا بالله وتفريقًا بين المؤمنين وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله من قبل، وهو أبو عامر الفاسق الذى يقال له الراهب لعنه الله، وقوله ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ نهى

من الله لرسول ﷺ والأمة تبع له في ذلك عن أن يقوم فيه أى يصلى فيه أبداً. ثم حثه على الصلاة بمسجد قباء الذى أسس من أول يوم بنائه على التقوى، وهى طاعة الله وطاعة رسوله وجمعاً لكلمة المؤمنين ومعقلاً وموثلاً للإسلام وأهله، ولهذا قال تعالى: ﴿لَمَسْجِدٍ أُتَسَّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ والسياق إنما هو فى معرض مسجد قباء، ولهذا جاء فى الحديث الصحيح^(١) أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة فى مسجد قباء كعمرة»، وفى الصحيح^(٢) أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكباً وماشيئاً، وفى الحديث أن رسول الله ﷺ لما بناه وأسس أول قدمه ونزوله على بنى عمرو بن عوف كان جبريل هو الذى عين له جهة القبلة، فالله أعلم.

وقال أبو داود^(٣): حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا معاوية بن هشام عن يونس بن الحارث عن إبراهيم بن أبى ميمونة عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «نزلت هذه الآية فى أهل قباء ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾» - قال - كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية». ورواه الترمذى وابن ماجه^(٤) من حديث يونس بن الحارث وهو ضعيف، وقال الترمذى غريب من هذا الوجه، وقال الطبرانى^(٥): حدثنا الحسن بن على المعمرى، حدثنا محمد بن حميد الرازى، حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ بعث رسول الله ﷺ إلى عويم بن ساعدة فقال: «ما هذا الطهور الذى أثنى الله عليكم؟» فقال: يا رسول الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا وغسل فرجه أو قال مقعدته، فقال النبى ﷺ «هو هذا».

وقال الإمام أحمد^(٦): حدثنا حسين بن محمد، حدثنا أبو أويس، حدثنا شرحبيل عن عويم بن ساعدة الأنصارى، أنه حدثه أن النبى ﷺ أتاهم فى مسجد قباء فقال: «إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء فى الطهور فى قصة مسجديكم، فما هذا الطهور الذى تطهرون به؟» فقالوا: والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً، إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أديبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا، ورواه ابن خزيمة فى صحيحه^(٧)، وقال هشيم عن عبد الحميد المدنى عن إبراهيم بن المعلى الأنصارى: أن رسول الله ﷺ قال لعويم بن ساعدة: «ما هذا الذى أثنى الله عليكم ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾؟» الآية، قالوا: يا رسول الله إنا نغسل الأديبار بالماء،

وقال ابن جرير^(٨): حدثنى محمد بن عمارة الأسدى، حدثنا محمد بن سعد ثنا إبراهيم بن محمد عن شرحبيل بن سعد قال: سمعت خزيمة بن ثابت يقول: نزلت هذه الآية ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ وألله بحوث المظهرين قال كانوا يغسلون أديبارهم من الغائط. (حديث آخر): قال الإمام أحمد بن حنبل^(٩): حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مالك يعنى ابن مفلح،

(١) صحيح: الترمذى (٣٢٤)، ابن ماجه (١٤١١)، من حديث أسيد بن ظهير الأنصارى به.

(٢) البخارى (١١٩٢)، (١١٩٣)، ومسلم، (١٣٩٩)، من حديث ابن عمر.

(٣) صحيح: أبو داود (٤٤).

(٤) صحيح: الترمذى (٣١٠٠)، وابن ماجه (٣٥٧).

(٥) المعجم الكبير للطبرانى (٦٧/١١)، برقم (١١٠٦٥)، فى إسناده محمد بن حميد ضعيف.

(٦) المسند (١٥٠٥٩).

(٧) صحيح: ابن خزيمة (٤٥/١) برقم (٨٣).

(٨) تفسير الطبرى (٣٠/١١).

(٩) المسند (٢٣٣٢١).

سمعت سيارًا أبا الحكم عن شهر بن حوشب عن محمد بن عبد الله بن سلام قال: لما قدم رسول الله ﷺ يعنى قباء، فقال «إن الله عز وجل قد أثنى عليكم فى الطهور خيرًا أفلا تخبروني؟» يعنى قوله «فبئيرجال يحبونك أن يظهوروا والله يحب المظهورين» فقالوا يا رسول الله إنا نجده مكتوبًا علينا فى التوراة الاستنجاء بالماء.

وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف، رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس، ورواه عبد الرزاق بن معمر عن الزهري عن عروة بن الزبير، وقال عطية العوفى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم والشعبى والحسن البصرى ونقله البغوى عن سعيد بن جبير وقتادة، وقد ورد فى الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذى هو فى جوف المدينة هو المسجد الذى أسس على التقوى، وهذا صحيح. ولا منافاة بين الآية وبين هذا، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى، ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده^(١): «حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد الله بن عامر الأسلمى عن عمران بن أبى أنس، عن سهل بن سعد عن أبى بن كعب أن النبى ﷺ قال: «المسجد الذى أسس على التقوى مسجدي هذا» تفرد به أحمد.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد^(٢): «حدثنا وكيع، حدثنا ربيعة بن عثمان التيمي عن عمران بن أبى أنس عن سهل بن سعد الساعدي قال: اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ فى المسجد الذى أسس على التقوى فقال أحدهما هو مسجد الرسول ﷺ، وقال الآخر هو مسجد قباء، فأبى النبى ﷺ فبألاه فقال: «هو مسجدي هذا» تفرد به أحمد أيضًا.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد^(٣): «حدثنا موسى بن داود، حدثنا ليث عن عمران بن أبى أنس عن سعيد بن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: تمارى رجلان فى المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم، فقال أحدهما هو مسجد قباء، وقال الآخر هو مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ «هو مسجدي هذا» تفرد به أحمد.

(طريق أخرى) قال الإمام أحمد^(٤): «حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا ليث حدثنى عمران بن أبى أنس عن ابن أبى سعيد عن أبيه أنه قال: تمارى رجلان فى المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم، فقال رجل هو مسجد قباء، وقال الآخر هو مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ «هو مسجدي» وكفلا رواه الترمذى والنسائى^(٥) عن قتيبة عن الليث وصححه الترمذى وزواه مسلم^(٦) كما سيأتى.

(طريق أخرى) قال الإمام أحمد^(٧): «حدثنا يحيى عن أنيس بن أبى يحيى، حدثنى أبى قال: سمعت أبا سعيد الخدرى قال: اختلف رجلان من بنى خدره ورجل من بنى عمرو بن عوف، فى المسجد الذى أسس على التقوى، فقال الخدرى هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال العمري هو مسجد

(١) صحيح: المسند (٢٠٦٠٤).

(٢) المسند (١١٤٣٦).

(٣) صحيح: الترمذى (٣٠٩٩)، النسائى (٦٩٧). (٦) مسلم بوقم (١٣٩٨).

(٧) المسند (١٠٧٩٤).

قبا، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك فقال: «هو هذا المسجد» لمسجد رسول الله ﷺ، وقال: «في ذلك خير كثير» يعني مسجد قبا.

(طريق أخرى) قال أبو جعفر بن جرير^(١): حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا حميد الخراط المدني سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن أبي سعيد فقلت كيف سمعت أباك يقول في المسجد الذي أسس على التقوى؟ فقال: قال أبي: أتيت رسول الله ﷺ فدخلت عليه في بيت لبعض نسائه فقلت: يا رسول الله أين المسجد الذي أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفاً من حصباء فضرب به الأرض ثم قال: «هو مسجدكم هذا» ثم قال: فقلت له هكذا سمعت أباك يذكره، رواه مسلم^(٢) منفرداً به عن محمد بن حاتم عن يحيى بن سعيد به، ورواه عن أبي بكر بن أبي شيبة وغيره عن حاتم بن إسماعيل عن حميد الخراط به، وقد قال بأنه مسجد النبي ﷺ جماعة من السلف والخلف، وهو مروى عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وزيد بن ثابت وسعيد بن المسيب، واختاره ابن جرير، وقوله: ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِلَّهِ حُجَّةً الْمُطَهَّرِينَ﴾ دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء والتتره عن ملابس القاذورات.

وقد قال الإمام أحمد^(٣): حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن عبد الملك بن عمير، سمعت شيباناً أبا روح يحدث عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح فقرأ الروم فأوهم فلما انصرف قال: «إنه يلبس علينا القرآن، إن أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء» ثم رواه من طريقين آخرين عن عبد الملك بن عمير عن شيبان أبي روح من ذى الكلاع، أنه صلى مع النبي ﷺ فذكره، فدل هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة ويعين على إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعاتها. وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ إن الطهور بالماء لحسن ولكنهم المطهرون من الذنوب. وقال الأعمش التوبة من الذنوب والتطهر من الشرك، وقد ورد في الحديث المروى من طرق في السنن وغيرها أن رسول الله ﷺ قال لأهل قبا: «قد أتى الله عليكم في الطهور فماذا تصنعون؟» فقالوا نستنجى بالماء، وقد قال الحافظ أبو بكر البزار^(٤): حدثنا عبد الله بن شبيب، حدثنا أحمد بن محمد بن عبد العزيز قال: وجدته في كتاب أبي عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية في أهل قبا ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِلَّهِ حُجَّةً الْمُطَهَّرِينَ﴾ فسألهم رسول الله ﷺ، فقالوا: إنا نتبع الحجارة الماء رواه البزار، ثم قال: تفرد به محمد بن عبد العزيز عن الزهري ولم يرو عنه سوى ابنه، قلت: وإنما ذكرته بهذا اللفظ؛ لأنه مشهور بين الفقهاء ولم يعرفه كثير من المحدثين المتأخرين أو

(١) صحيح: تفسير الطبري (٢٧/١١).

(٢) مسلم برقم (١٣٩٨).

(٣) صحيح: المسند (١٥٤٤٧).

(٤) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢١٢/١): رواه البزار وفيه محمد بن عبد العزيز بن عمر ضعفه البخاري والنسائي وغيرهما.

كلهم، والله أعلم.

﴿أَفَمَنْ أَسْسَ بُيُوتَكُمْ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسْسَ بُيُوتَكُمْ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْتَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ﴿٢١﴾ لَا يَزَالُ بُيُوتَهُمُ الَّتِي بُنُوا رَبِّبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

يقول تعالى لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، ومن بني مسجدا ضرابا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين، وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل، فإنما بني هؤلاء بنيانهم على شفا جرف هار، أى طرف حفيرة، منثالة ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ﴾ أى: لا يصلح عمل المفسدين. قال جابر بن عبد الله: رأيت المسجد الذى بنى ضرابا يخرج منه الدخان على عهد رسول الله ﷺ.

وقال ابن جريج: ذكر لنا أن رجالا حفروا فوجدوا الدخان يخرج منه، وكذا قال قتادة، وقال خلف بن ياسين الكوفى: رأيت مسجد المنافقين الذى ذكره الله تعالى فى القرآن وفيه جحر يخرج منه الدخان وهو اليوم مزبلة، رواه ابن جرير رحمه الله.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُيُوتَهُمُ الَّتِي بُنُوا رَبِّبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أى: شكًا ونفاقًا، بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع أورتهم نفاقًا فى قلوبهم كما أشرب عابده العجل جه.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أى بموتهم، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وزيد بن أسلم والسدى وحبيب بن أبى ثابت والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد من علماء السلف، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أى: بأعمال خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ فى مجازاتهم عنها من خير وشر.

ربع

المغرب

٢١

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْبَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَافٍ فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بَيْنَكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

يخبر تعالى أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بئلوها فى سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبادة المطيعين له؛ ولهذا قال الحسن البصرى وقتادة: بايعهم الله فأغلى ثمنهم. وقال شمر بن عطية: ما من مسلم إلا والله عز وجل فى عنقه بيعة، وفى بها أو مات عليها ثم تلا هذه الآية. ولهذا يقال من حمل فى سبيل الله بايع الله أى قبل هذا العقد ووفى به. وقال محمد بن كعب القرظى وغيره، قال عبد الله بن رواحة - رضى الله عنه - لرسول الله ﷺ: معنى ليلة العقبة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال «أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا. وأشترط لنفسى أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال «الجنة» قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل^(١)، فنزلت ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْبَلُونَ وَرَضُوا﴾ أى: سواء

قتلوا أو قتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا فقد وجبت لهم الجنة .

ولهذا جاء في الصحيحين ^(١) «وتكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وتصديق برسلي بأن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة» وقوله: ﴿وَعَدَّا عَلَيْكَ حَقًّا فِي التَّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ﴾ تأكيد لهذا الوعد وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة وأنزله على رسله في كتبه الكبار، وهي التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقوله: ﴿وَمَنْ أُوْفِيَ بِهَدْيِهِ مِنْ اللَّهِ﴾ فإنه لا يخلف الميعاد. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] ولهذا قال ﴿فَأَسْتَبِشِرُوا بَيْنَكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: فليستبشروا من قام بمقتضى هذا العقد وفى بهذا العهد بالفوز العظيم والنعيم المقيم .

﴿التَّائِبِينَ الْعَاذِرِينَ الْحَمِيدُونَ السَّاجِدُونَ الْغَافِقُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة ﴿التَّائِبِينَ﴾ من الذنوب كلها التاركون للفواحش ﴿السَّاجِدُونَ﴾ أي: القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها وهي الأقوال والأفعال، فمن أخص الأقوال الحمد، ولهذا قال: ﴿لِلْحَمِيدُونَ﴾ ومن أفضل الأعمال الصيام وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة ههنا، ولهذا قال: ﴿التَّائِبِينَ﴾ كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك فى قوله تعالى: ﴿تَتَّبِعُونَ﴾ أي: صائمات، وكذا الركوع والسجود وهما عبارة عن الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿الرَّكَعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ وهم مع ذلك ينفعون خلق الله ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع العلم بما ينبغى فعله ويجب تركه، وهو حفظ حدود الله فى تحليله وتحريمه علماً وعملاً، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق؛ ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به .

(بيان أن المراد بالسياحة الصيام) قال سفيان الثوري: عن عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود قال ﴿التَّائِبِينَ﴾ الصائمون وكذا روى عن سعيد بن جبيرة والعمري عن ابن عباس، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس . كل ما ذكر الله فى القرآن السياحة هم الصائمون، وكذا قال الضحاك رحمه الله . وقال ابن جرير ^(٢): حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا إبراهيم بن يزيد عن الوليد بن عبد الله عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: سياحة هذه الأمة الصيام، وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبيرة وعطاء وأبو عبد الرحمن السلمى والضحاك بن مزاحم وسفيان بن عيينة وغيرهم، أن المراد بالسائحين الصائمون، وقال الحسن البصرى: ﴿التَّائِبِينَ﴾ الصائمون شهر رمضان، وقال أبو

(١) البخاري (٣١٢٣)، ومسلم (١٨٧٦) من حديث أبي هريرة .

(٢) تفسير الطبري (٣٩/١١) .

عمرو العبدى: ﴿الْمُتَّحِرُونَ﴾ الذين يديمون الصيام من المؤمنين، وقد ورد فى حديث مرفوع نحو هذا، فقال ابن جرير (١): حدثنى محمد بن عبد الله بن بزيع، حدثنا حكيم بن حزام، حدثنا سليمان عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الساائحون هم الصائمون» وهذا الموقوف أصح، وقال أيضاً حدثنى يونس عن ابن وهب عن عمر بن الحارث عن عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير، قال: سئل النبى ﷺ عن السايحين، فقال: «هم الصائمون» وهذا مرسل جيد فهذا أصح الأقوال وأشهرها.

وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد وهو ما روى أبو داود (٢) فى سننه من حديث أبى أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله ائذن لى فى السياحة، فقال النبى ﷺ: «سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله» وقال ابن المبارك عن ابن لهيعة، أخبرنى عمارة بن غزوة أن السياحة ذكرت عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أبدلنا الله بذلك الجهاد فى سبيل الله والتكبير على كل شرف» وعن عكرمة أنه قال: هم طلبة العلم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المهاجرون، رواهما ابن أبى حاتم، وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة فى الأرض والتفرد فى شواهد الجبال والكهوف والبرارى، فإن هنا ليس بمشروع إلا فى أيام الفتن والزلازل فى الدين، كما ثبت فى صحيح البخارى (٣) عن أبى سعيد الخدرى، أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن» وقال العوفى وعلى بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَالْمُتَّحِرُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ قال القائمون بطاعة الله، وكذا قال الحسن البصرى وعنه رواية ﴿وَالْمُتَّحِرُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ قال: لغنائص الله، وفى رواية القائمون على أمر الله.

﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأبيه إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾

قال الإمام أحمد (٤): حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن الزهري عن ابن المسيب عن أبىه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبى ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية، فقال «أى عم، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل» فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ قال: فلم يزالا يكلمانى حتى قال آخر شيء كلمهم به أنا على ملة عبد المطلب، فقال النبى ﷺ: «لا تستغفرون لك ما لم أنه عنك» فنزلت: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥٠﴾﴾ قال ونزلت فيه ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدَىٰ مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ (٥).

(١) ضعيف: تفسير الطبري (٣٧/١١) فى إسناده حكيم بن حزام، وهو متروك.

(٢) حسين: أبو داود (٢٤٨٦).

(٣) صحيح: المسند (٢٣١٦٢).

(٤) البخارى برقم (١٩).

(٥) البخارى برقم (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

وقال الإمام أحمد ^(١): «حدثنا يحيى بن آدم، أخبرنا سفيان عن أبي إسحاق عن أبي الخليل عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت: أيستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان؟ فقال: أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾ الآية، قال لما مات فلا أدري، قاله سفيان أو قاله إسرائيل أو هو في الحديث «لما مات».

﴿قُلْتُ﴾: هذا ثابت عن مجاهد أنه قال: لما مات. وقال الإمام أحمد ^(٢): «حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا زهير، حدثنا يزيد بن الحارث الياقوبي عن محارب بن دثار عن ابن بريدة عن أبيه قال كنا مع النبي ﷺ ونحن في سفر، فنزل بنا ونحن معه قريب من ألف راكب، فصلى ركعتين ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان، فقام إليه عمر بن الخطاب وفداه بالأب والأم وقال: يا رسول الله مالك؟ قال: «إني سألت ربي عز وجل في الاستغفار لأمي فلم يأذن لي فدمعت عيناي رحمة لها من النار، وإني كنت نهيتكم عن ثلاث: نهيتكم عن زيارة القبور فزورها لتذكركم زيارتها خيراً. ونهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاث فكلوا وأمسكوا ما شئتم، ونهيتكم عن الأشربة في الأوعية فاشربوا في أي وعاء شئتم، ولا تشربوا مسكراً».

ودروى ابن جرير ^(٣) من حديث علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن النبي ﷺ لما قدم مكة، أتى رسم قبر فجلس إليه فجعل يخاطب ثم قام مستعبراً، فقلنا يا رسول الله إنا رأينا ما صنعت. قال: «إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي» فما رمى باكياً أكثر من يومئذ. وقال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبي، حدثنا خالد بن خدّاش، حدثنا عبد الله بن وهب عن ابن جريج عن أيوب بن هانيء عن مسروق عن عبد الله بن مسعود، قال: خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر فاتبعناه فجاء حتى جلس إلى قبر منها، فتجاه طويلاً ثم بكى فبكينا لبكائه، ثم قام فقام إليه عمر بن الخطاب فدعاه ثم دعانا، فقال «ما أبكاكم؟» فقلنا بكينا لبكائك. قال: «إن القبر الذي جلست عنده قبر أمّتي، وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي» ثم أورد من وجه آخر، ثم ذكر من حديث ابن مسعود قريباً منه، وفيه: «وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي وأنزل علي: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾ الآية، فأخذني ما يأخذ الولد للوالد، وكنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزورها فإنها تذكر الآخرة» ^(٤).

(حديث آخر في معناه): قال الطبراني ^(٥): «حدثنا محمد بن علي المروزي، حدثنا أبو الدرداء عبد العزيز بن منيب، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن كيسان، عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما أقبل من غزوة تبوك واعتمر، فلما هبط من ثنية عسفان أمر أصحابه أن استندوا إلى

(١) المسند (٧٧٣).

(٢) صحيح: المسند (٢٢٤٩٤).

(٣) صحيح: تفسير الطبري (٤٢/١١).

(٤) صحيح: أخرجه الحاكم في مستدرکه (٣٦٦/٢)، برقم (٣٢٩٢)، من طريق عبد الله بن وهب بنحوه، وقال: صحيح على شرطهما.

(٥) ضعيف: المعجم الكبير للطبراني (٣٧٤/١١) برقم (١٢٠٤٩).

العقبة حتى أرجع إليكم، فذهب فنزل على قبر أمه فناجى ربه طويلاً، ثم إنه بكى فاشتد بكاءه وبكى هولاء لبكائه، وقالوا ما بكى نبي الله بهذا المكان إلا وقد أحدث الله في أمته شيئاً لا تطيقه، فلما بكى هولاء قام فرجع إليهم فقال: «ما يبكيكم؟» قالوا: يا نبي الله بكينا لبكائك، فقلنا لعله أحدث في أمتك شيء لا تطيقه، قال: «لا، وقد كان بعضه، ولكن نزلت على قبر أمي فسألت الله أن يأذن لي في شفاعتها يوم القيامة فأبى الله أن يأذن لي فرحمتها وهي أمي فبكت، ثم جاءني جبريل فقال: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتَاءَ فُلَانًا بَيْنَ يَدَيْهِ فَاسْتَفْتَى بِهِ﴾ فبكت أنت من أمك كما تبرأ إبراهيم من أبيه، فرحمتها وهي أمي ودعوت ربي أن يرفع عن أمي أربعاً فرجع عنهم اثنتين وأبى أن يرفع عنهم اثنتين، ودعوت ربي أن يرفع عنهم الرجم من السماء والفرق من الأرض وأن لا يلبسهم شيئاً وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض، فرفع الله عنهم الرجم من السماء والفرق من الأرض وأبى الله أن يرفع عنهم القتل والهرج» وإنما عدل إلى قبر أمه؛ لأنها كانت مدفونة تحت كداء وكانت عسفان لهم، وهذا حديث غريب وسياق عجيب، وأغرب منه وأشد نكارة ما رواه الخطيب البغدادي في كتاب «السابق واللاحق» بسند مجهول عن عائشة في حديث فيه قصة، أن الله أحيا أمه فأمنت ثم عادت» وكذلك ما رواه السهيلي في الروض بسند فيه جماعة مجهولون: إن الله أحيا له أباه وأمّه فأمنتا به.

وقد قال الحافظ ابن دحية: هذا حديث موضوع يردده القرآن والإجماع قال تعالى: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَهُودُوتُكَ وَهُمْ كَفَّارٌ﴾.

وقال القرطبي: إن مقتضى هذا الحديث... وردّ على ابن دحية في هذا الاستدلال، بما حاصله أن هذه حياة جديدة كما رجعت الشمس بعد غيوبتها، فصلى عليّ العصر، قال الطحاوي: وهو حديث ثابت يعني حديث الشمس، قال القرطبي: فليس إحياءهما يمتنع عقلاً ولا شرعاً، قال: وقد سمعت أن الله أحيا عمه أبا طالب فأمن به.

(قُلْتُ) وهذا كله متوقف على صحة الحديث فإذا صح فلا مانع منه، والله أعلم.

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية، أن النبي ﷺ أراد أن يستغفر لأمه فنهاه الله عز وجل عن ذلك، فقال «إن إبراهيم خليل الله ﷺ قد استغفر لأبيه» فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتَاءَ﴾ الآية، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية، كانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية، فأمسكوا عن الاستغفار لامواتهم ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا، ثم أنزل الله: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآية، وقال قتادة في الآية: ذكر لنا أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا نبي الله إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الأرحام ويفك المعاني ويوفى بالنعم أفلا نستغفر لهم؟ قال: فقال النبي ﷺ: «بلى والله إنى لأستغفر لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه»^(١) فأنزل الله: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ حتى بلغ قوله ﴿لِلْبَجِيرِ﴾ ثم عذر الله تعالى إبراهيم

عليه السلام، فقال: ﴿وَمَا كَأَنْتَ أَسْتَغْفَرُ لِإِبْرَاهِيمَ لِأَيِّهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتَاءَهُ فَلَئِمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾، قال: وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «قد أوحى إليّ كلمات فدخلن في أذني وقرن في قلبي: أمرت أن لا أستغفر لمن مات مشركاً، ومن أعطى فضل ماله فهو خير له، ومن أمسك فهو شر له، ولا يلوم الله على كفاف».

وقال الثوري عن الشيباني عن سعيد بن جبيرة قال: مات رجل يهودي وله ابن مسلم فلم يخرج معه، فذكر ذلك لابن عباس فقال: فكان ينبغي له أن يمشى معه ويدفنه ويدعوه بالصلاح ما دام حيّاً، فإذا مات وكله إلى شأنه، ثم قال: ﴿وَمَا كَأَنْتَ أَسْتَغْفَرُ لِإِبْرَاهِيمَ لِأَيِّهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتَاءَهُ فَلَئِمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ لم يدع. ويشهد له بالصححة ما رواه أبو داود^(١) وغيره عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لما مات أبو طالب قلت يا رسول الله: إن عمك الشيخ الضال قد مات، قال: «اذهب فواره ولا تحدثن شيئاً حتى تأتيني» وذكر تمام الحديث، يروى أن رسول الله ﷺ لما مرت به جنازة عمه أبي طالب قال: «وصلتكم رحم يا عم» وقال عطاء بن أبي رباح: ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة، ولو كانت حبشية حبلى من الزنا، لأنى لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين، يقول الله عز وجل: ﴿مَا كَأَنْتَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية.

وروى ابن جرير، عن ابن وكيع عن أبيه عن عصمة بن زامل عن أبيه، قال: سمعت أبا هريرة يقول: رحم الله رجلاً استغفر لأبي هريرة ولأمه، قلت ولأبيه. قال لا. قال إن أبي مات مشركاً، وقوله: ﴿فَلَئِمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ قال ابن عباس: ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، وفي رواية لما مات تبين له أنه عدو لله، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم رحمهم الله، وقال عبید بن عمير وسعيد بن جبيرة: إنه يتبرأ منه في يوم القيامة حتى يلقي أباه، وعلى وجه أبيه الغبرة والقترة، فيقول: يا إبراهيم إني كنت أعصيك وإنى اليوم لا أعصيك، فيقول: أي رب ألم تعدني أن لا تخزني يوم يبعثون؟ فأى خزى أخزى من أبي الأبعد؟، فيقال انظر إلى ما وراءك فإذا هو بذيخ متلطح، أى قد مسخ ضبعاً ثم يسحب بقوائمه ويلقى في النار. وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ قال صفيان الثوري وغير واحد: عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبیش عن عبد الله بن مسعود، أنه قال الأواه الدعاء، وكذا روى من غير وجه: عن ابن مسعود.

وقال ابن جرير^(٢): حدثني المثنى، حدثنا الحجاج بن منهال، حدثني عبد الحميد بن بهرام، حدثنا شهر بن حوشب عن عبد الله بن شداد بن الهاد، قال: بينما رسول الله ﷺ جالس قال رجل: يا رسول الله ما الأواه؟ قال: «المتضرع» قال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ ورواه ابن أبي حاتم: من حديث ابن المبارك عن عبد الحميد بن بهرام به، ولفظه قال الأواه المتضرع الدعاء. وقال الثوري عن سلمة بن كهيل عن مسلم البطين عن أبي العبيدين، أنه سأل ابن مسعود عن الأواه فقال هو الرحيم، وبه قال مجاهد وأبو ميسرة عمرو بن شرحبيل والحسن البصرى وقتادة: أى الرحيم أى بعباد الله.

وقال ابن المبارك عن خالد بن حكمة عن ابن عباس، قال: الأواه الموقن بلسان الحبشة، وكذا

(١) صحيح: أبو داود (٣٢١٤)، والنسائي (٢٠٠٦).

(٢) تفسير الطبري (٥١/١١).

قال العوفي عن ابن عباس أنه الموقن، وكذا قال مجاهد والضحاك، وقال علي بن أبي طلحة ومجاهد عن ابن عباس: الأواه المؤمن، زاد علي بن أبي طلحة عنه: هو المؤمن التواب، وقال العوفي عنه هو المؤمن بلسان الحبشة. وكذا قال ابن جريج هو المؤمن بلسان الحبشة.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا موسى، حدثنا ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن علي بن رباح عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له: ذو البجادين «إنه أواه» وذلك أنه رجل كثير الذكر لله في القرآن ورفع صوته بالدعاء، ورواه ابن جرير. وقال سعيد بن جبيرة والشعبي: الأواه المسبح، وقال ابن وهب عن معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية عن جبيرة بن نفير عن أبي الدرداء - رضي الله عنه قال: لا يحافظ على سبحة الضحى إلا الأواه، وقال شفي بن مانع عن أبي أيوب، الأواه الذي إذا ذكر خطاياها استغفر منها، وعن مجاهد الأواه الحفيظ الوجل يذنب الذنب سرًا ثم يتوب منه سرًا، ذكر ذلك كله ابن أبي حاتم، رحمه الله.

وقال ابن جرير^(٢): حدثنا ابن وكيع، حدثنا المحاربي عن حجاج عن الحكم عن الحسن بن مسلم بن يناف، أن رجلا كان يكثر ذكر الله ويسبح، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «إنه أواه».

وقال أيضًا^(٣): حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن هانئ، حدثنا المنهال بن خليفة عن حجاج بن أرطاة عن عطية عن ابن عباس، أن النبي ﷺ دفن ميتًا فقال: «رحمك الله إن كنت لأواها» يعني تلاء للقرآن، وقال شعبة عن أبي يونس الباهلي، قال سمعت رجلا بمكة وكان أصله روميًا وكان قاصًا يحدث عن أبي ذر، قال: كان رجل يطوف بالبيت الحرام ويقول في دعائه: أوه أوه فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «إنه أواه» قال: فخرجت ذات ليلة فإذا رسول الله ﷺ يدفن ذلك الرجل ليلا ومعه المصباح، هذا حديث غريب رواه ابن جرير. وروى عن كعب الأحبار أنه قال: سمعت «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ» قال: كان إذا ذكر النار قال: أوه من النار، وقال ابن جريج عن ابن عباس «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ» قال: فقيه. قال الإمام أبو جعفر بن جرير: وأولى الأقوال قول من قال إنه الدعاء وهو المناسب للسياق، وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن مودة وعدها إياه، وقد كان إبراهيم كثير الدعاء حلِيمًا عمن ظلمه وأناله مكرها، ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه له في قوله: «أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِ إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّكَ كَانتَ فِي حَقِيْقًا» [سريم: ٤٦-٤٧] فحلِم عنه مع أذاه له ودعا له واستغفر؛ ولهذا قال تعالى: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ».



(١) حسن: المسند (١٧٠٠٠).

تنبيه: في المسند قال: حدثنا يونس حدثنا ابن لهيعة فليعلم.

قال الهيثمي في المجمع (٣٧٢/٩): رواه أحمد والطبراني وإسنادهما حسن.

(٢) تفسير: الطبري (٥٠/١١).

(٣) تفسير: الطبري (٥٠/١١).

﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ يُغْضِبُ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة وحكمه العادل: إنه لا يضل قوماً إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا تَتْمُدُّ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَبَعَبُوا أَلْمَنَ عَلَىٰ الْهَدَىٰ﴾ الآية [فصلت: ١٧]، وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ يُغْضِبُ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ الآية، قال بيان الله عز وجل للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه لهم في وطاعته ومعصيته عامة، فافعلوا أو ذروا.

وقال ابن جرير: يقول الله تعالى: وما كان الله ليقضى عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه فتركوا، فأما قبل أن يبين لكم كراهة ذلك بالنهي عنه ثم تعدوا نهييه إلى ما نهاكم عنه فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهى، وأما من لم يؤمر ولم ينه فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ قال ابن جرير: هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأن يثقروا بنصر الله مالك السموات والأرض ولا يرهبوا من أعدائه، فإنه لا ولي لهم من دون الله ولا نصير لهم سواه، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن أبي دلامة البغدادي، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا سعيد عن قتادة عن صفوان بن محرز عن حكيم بن حزام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا ما نسمع من شيء، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأسمع أطيظ السماء وما تلام أن تنط وما فيها من موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم»^(١) وقال كعب الأحبار: ما من موضع خرم إبرة من الأرض إلا وملك موكل بها يرفع علم ذلك إلى الله، وإن ملائكة السماء لأكثر من عدد التراب، وإن حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى مخه مسيرة مائة عام.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَىٰ النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُنْجَاةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مجدبة وحر شديد وعسر من الزاد والماء، قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليها ثم يمصها هذا ثم يشرب

(١) صحيح: رواه محمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (١/٢٥٨)، برقم (٢٥٠)، والطبراني في الكبير (٣/٢٠١)، برقم (٣١٢٢)، من طريق عبد الوهاب بن عطاء بنحوه.

عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم.

وقال ابن جرير^(١): حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن عتبة بن أبي عتبة عن نافع بن جبير بن مطعم عن عبد الله بن عباس، أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر بن الخطاب: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيده فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله عز وجل قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا، فقال «تحب ذلك؟» قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى مالت السماء فأهطلت ثم سكبت، فملئوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجد ما جاوزت العسكر.

وقال ابن جرير: في قوله «لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَبَأِ الْقُسَيْرِ» أي من النفقة والظهر والزاد والماء «وَمِن بَدْمَا سَكَاذَ يَزْبُغُ قُلُوبُ فَيَهَيِّئُ مِنْهُمُ» أي عن الحق، ويشك في دين رسول الله ﷺ ويرتاب بالذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوه «فَدَرَّ تَابَكَ عَلَيْهِمْ» يقول: ثم رزقهم الإجابة إلى ربهم والرجوع إلى الشبات على دينه «إِنَّهُمْ يَهْتَرُونَ رَهْوَافَ تَيْبَرٍ».

«وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»^(٢)
بِكَائِبَتِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ

قال الإمام أحمد^(٣): حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن أخي الزهري محمد بن عبد الله، عن عمه محمد بن مسلم الزهري أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، أن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب بن بنيه حين عمى، قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاهما قط إلا في غزوة تبوك، غير أنني كنت تخلفت في غزاة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عمير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواتقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما جمعت قبلها راحلتيين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاهما رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل عدواً كثيراً فخلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب: فقل رجل

(٢) صحيح: المسند (١٣٥٦٢).

(١) صحيح: تفسير الطبري (٥٥/١١).

يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه ما لم ينزل فيه وحى من الله عز وجل، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت شمار والظل وأنا إليها أصعر، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازي شيئاً، فأقول لنفسي أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شتمت بالناس الجدد، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً وقلت: الجهاز بعد يوم أو يومين ثم الحقه فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئاً من جهازي، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهممت أن أرتحل فأدرتهم وليت أنى فعلت، ثم لم يقدر ذلك لى فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفقت فيهم يحزننى أنى لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه فى النفاق أو رجلاً ممن عذره الله عز وجل، ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك» فقال رجل من بنى سلمة: حبسه يا رسول الله برداه والنظر فى عطفه، فقال معاذ بن جبل: بشما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك، حضرني بنى وطفقت أتفكر الكذب، وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً؟ أستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى، فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً، زاح عنى الباطل وعرفت أنى لم أنج منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه فأصبح رسول الله ﷺ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال لى: «تعال» فجئت أمشى حتى جلست بين يديه، فقال لى: «ما خلفك ألم تكن قد اشتريت ظهراً؟» فقلت: يا رسول الله إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلاً ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك بصدق تجد على فيه إنى لأرجو أقرب عقبي ذلك من الله عز وجل والله ما كان لى عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر منى حين تخلفت عنك، قال: فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك» فقامت وبادرنى رجال من بنى سلمة واتبعونى فقالوا لى: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ولقد عجزت إلا أن تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، قال: فو الله ما زالوا يؤنبونى حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى، قال ثم قلت لهم هل لقى معى هذا أحد؟ قالوا نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت فمن هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامرى وهلال بن أمية الواقفى، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرًا لى فيهما أسوة، قال: فمضيت حين ذكروهما لى قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض فما هى بالأرض التى كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحبائى فاستكانا

وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكانت أشد القوم وأجلدهم، فكانت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد، وأتى رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول في نفسي أحرك شفثيه برد السلام على أم لا؟ ثم أصلى قريبا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلى، فإذا التفّت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال على ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسوّرت حائط أبي قتادة وهواين عمي وأحب الناس إلى، فسلمت عليه فو الله ما رد على السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت، قال: فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فقال الله: ورسوله أعلم.

قال ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا أنا بنبطي من أياط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك، قال فطفق الناس يشيرون له إليّ حتى جاء فدفع إلى كتابا من ملك غسان وكنت كاتبًا، فإذا فيه: أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك وإن الله لم يجعلك الله بدار هوان هوان ولا مضية، فالحق بنا نواسك، قال: فقلت حين قرأتها وهذا أيضًا من البلاء، قال: فقيممت به التنور فسجرت به بها حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول الله ﷺ يأتيني فقال إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال فقلت أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال: بل اعتزلها ولا تقربها، قال وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك، قال فقلت لا امرأتى الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله في هذا الأمر ما يشاء، قال فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن هلالا شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟، قال: «لا ولكن لا يقربتك»، قالت وإنه والله ما به من حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي من لدن أن كان من أمرك ما كان إلي يومه هذا، قال فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لا امرأة هلال بن أمية أن تخدمه، قال فقلت والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب.

قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا، قال: ثم صليت الفجر الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا قد ضاقت على نفسي وضاقت على الأرض بما رحبت، سمعت صارخًا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، قال: فخررت ساجدًا وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا، فأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إليّ رجل فرمًا وسعى ساع من أسلم وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنى فنزعت له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته لي، والله ما أملك يومئذ غيرهما، واستعرت ثوبيين فلبستهما وانطلقت أوم رسول الله ﷺ يتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهتفون بتوبة الله، يقولون ليهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور، «أبشر بخير يوم مر عليك منذ

ولدتك أمك قال: قلت أمن عندك رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا بل من عند الله» قال: وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر حتى يعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخبير وقلت يا رسول الله: إنما نجاني الله بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت، قال: فو الله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا، وإني لأرجو أن يحفظنى الله عز وجل فيما بقى.

(قال): وأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ مِنْ بَدَا مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَهْمٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٤﴾ وَحَلَّ اللَّهُ لُذُومَةَ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَىٰ إِلَهِهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٥﴾ بِكَايِبَاتِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾. قال كعب: فو الله ما أنعم الله عليّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسى من صدقى رسول الله ﷺ يومئذ، أن لا أكون كذبتة فأهلك كما هلك الذين كذبوه حين كذبوه، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد، فقال الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥-٩٦] قال: وكنا أيها حُلَفْنَا الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه؛ فلذلك قال عز وجل: ﴿وَحَلَّ اللَّهُ لُذُومَةَ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ وليس تخليفه إيانا وارجاؤه أمرنا الذى ذكر مما خلفنا بتخليفنا عن الغزو، وإنما هو عمن حلف له واهتلت إلية فقبل منه.

هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته رواه صاحبنا الصحيح البخارى ومسلم^(١)، من حديث الزهرى بنحوه، فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها، وكذا روى عن غير واحد من السلف فى تفسيرها، كما رواه الأعمش عن أبى سفيان عن جابر بن عبد الله فى قوله تعالى: ﴿وَحَلَّ اللَّهُ لُذُومَةَ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ قال: هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وكلهم من الأنصار، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغير واحد وكلهم قال: مرارة بن ربيعة، وفى رواية عن سعيد بن جبيرة: ربيع بن مرارة، وقال الحسن البصرى: ربيع بن مرارة أو مرارة بن ربيع وكذا فى مسلم: ربيعة فى بعض نسخه، وفى بعضها مرارة بن الربيع. وفى رواية عن الضحاك مرارة بن الربيع كما وقع فى الصحيحين وهو الصواب، وقوله فسموا رجلين شهدا بدرًا قبل إنه خطأ من الزهرى، فإنه لا يعرف شهود واحد من هؤلاء الثلاثة بدرًا، والله أعلم.

ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم نحوًا من

(١) البخارى (٢٧٥٧)، مسلم (٢٧٦٩).

خمسين ليلة بأيامها، وضافت عليهم أنفسهم وضافت عليهم الأرض بما رحبت، أى مع سعتها فسدت عليهم المسالك والمذاهب فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله واستكانوا لأمر الله وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ فى تخلفهم، وأنه كان عن غير عذر فعوقبوا على ذلك هذه المدة ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيراً لهم وتوبة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣١) أى: اصدقوا والزمو الصديق تكونوا مع أهله وتنجوا من المهالك، ويجعل لكم فرجاً من أموركم ومخرجاً، وقد قال الإمام أحمد: ^(١) حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شقيق عن عبد الله هو ابن مسعود - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» أخرجاه فى الصحيحين ^(٢)، وقال شعبة عن عمرو بن مرة: سمع أبا عبيدة يحدث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال: الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، اقرهوا إن شئتم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مِنَ الصَّادِقِينَ» هكذا قرأها، ثم قال فهل تجدون لأحد فيه رخصة؟، وعن عبد الله بن عمرو فى قوله ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قال مع محمد ﷺ وأصحابه، وقال الضحاک مع أبى بكر وعمر وأصحابهما، وقال الحسن البصرى: إن أردت أن تكون مع الصادقين فعليك بالزهد فى الدنيا والكف عن أهل الملة.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَلُّونَ مَوْتًا يَفِيضَ الْكَفَّارَ وَلَا يَتَّالُونَ مِنْ عُذُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

يعاتب تبارك وتعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورجبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل له من المشقة، فإنهم نقصوا أنفسهم من الأجر لأنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ وهو العطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ وهو التعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ وهى المجاعة ﴿وَلَا يَطَلُّونَ مَوْتًا يَفِيضَ الْكَفَّارَ﴾. أى ينزلون منزلاً يهرب عدوهم ﴿وَلَا يَتَّالُونَ﴾ منه ظمراً وغلبة عليه إلا كتب الله لهم بهذه الأعمال التى ليست داخلة تحت قدرهم وإنما هى ناشئة عن أفعالهم أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ كقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].



(١) صحيح: المسند (٣٦٣١).

(٢) البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٠﴾﴾

يقول تعالى ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أى: قليلا ولا كثيرا ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أى: فى السير إلى الأعداء ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ ولم يقل ههنا به؛ لأن هذه أفعال صادرة عنهم، ولهذا قال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه من هذه الآية الكريمة حظ وافر ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق فى هذه الغزوة النفقات الجليلة والأموال الجزيلة، كما قال عبد الله بن الإمام أحمد: ^(١) حدثنا أبو موسى العنزي، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنى سكن بن المغيرة، حدثنى الوليد بن أبى هشام، عن فرقد أبى طلحة، عن عبد الرحمن بن خباب السلمى، قال: خطب رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة فقال عثمان بن عفان - رضى الله عنه - : عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها، قال ثم حث، فقال عثمان: عليّ مائة بعير أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال ثم نزل مرقاة من المنبر ثم حث، فقال عثمان بن عفان: عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: فرأيت رسول الله ﷺ قال بيده هكذا يحركها، وأخرج عبد الصمد يده كالمتعجب «ما على عثمان ما عمل بعد هذا» وقال عبد الله أيضا: ^(٢) حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ضمرة، حدثنا عبد الله بن شوذب، عن عبد الله بن القاسم عن كثير مولى عبد الرحمن بن سمرة عن عبد الرحمن بن سمرة، قال: جاء عثمان رضى الله عنه إلى النبى ﷺ بألف دينار فى ثوبه حين جهز النبى ﷺ جيش العسرة، قال: فصباها فى حجر النبى ﷺ فرأيت النبى صلى الله عليه وآله وسلم يقبلها بيده ويقول: «ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم» يرددها مرارا، وقال قتادة فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ الآية. ما ازداد قوم من أهلهم فى سبيل الله بعدا إلا ازدادوا قرىبا من الله.

نصف

الحزب

﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَأَنَّهٗ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١١١﴾﴾

٢١

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفي الأحياء مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، فإنه قد ذهبت طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفي على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ١٢٠]، قالوا فنسخ ذلك بهذه الآية. وقد يقال إنها بيان لمراده تعالى من نفي الأحياء كلها وشردمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو، فيجتمع لهم الأمران فى هذا النفي المعين، وبعده ﷺ تكون الطائفة النافرة من الحى إما للتفقه وإما للجهاد، فإنه فرض كفاية على الأحياء، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَأَنَّهٗ﴾ يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعا ويتركوا النبى ﷺ وحده ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يعنى عصابة

(٢) حسن لغيره: المسند (٢٠١٠٧).

(١) صحيح: المسند (١٦٢٥٥).

يعنى السرايا ولا يسيروا إلا بإذنه ، فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون مع النبى ﷺ ، وقالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنًا وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم ويبعث سرايا أخرى ، فذلك قوله: ﴿لِيَسْفَقُوا فِي الَّذِينَ﴾ يقول: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم ، ﴿لَهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ وقال مجاهد: نزلت هذه الآية فى أناس من أصحاب محمد ﷺ ، خرجوا فى البوادر فأصابوا من الناس معروفًا ، ومن الخصب ما يتتفون به ، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى ، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا؟ فوجدوا فى أنفسهم من ذلك تحرجًا وأقبلوا من البداية كلهم حتى دخلوا على النبى ﷺ ، فقال الله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يبتغون الخير ﴿لِيَسْفَقُوا فِي الَّذِينَ﴾ وليسمعوا ما فى الناس وما أنزل الله بعدهم ﴿وَلِيُذَرُوا قَوْمَهُمْ﴾ الناس كلهم إذا رجعوا إليهم ﴿لَهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ وقال قتادة فى هذه الآية: هذا إذا بعث رسول الله ﷺ الجيوش أمرهم الله أن لا يعرفوا نبيه ﷺ ، وتقيم طائفة مع رسول الله ﷺ تتفقه فى الدين ، وتنطلق طائفة تدعو قومها وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم .

وقال الضحاك: كان رسول الله ﷺ إذا غزا بنفسه لم يحل لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه إلا أهل العذر ، وكان إذا قام فاسترت السرايا لم يحل لهم أن ينطلقوا إلا بإذنه ، فكان الرجل إذا أسترى فنزل بعده قرآن وتلاه نبى الله ﷺ على أصحابه القاعدين معه ، فإذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله ﷺ: إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآنًا فيقرءونهم ويفقهونهم فى الدين ، وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفَرُوا كَافَّةً﴾ يقول إذا أقام رسول الله ﷺ ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يعنى بذلك أنه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعًا ونبى الله ﷺ قاعد ، ولكن إذا قعد نبى الله فسرت السرايا وقعد معه عظم الناس . وقال على بن أبى طلحة أيضًا عن ابن عباس ، قوله: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفَرُوا كَافَّةً﴾ إنها ليست فى الجهاد ، ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مضر بالسنين ، أجدبت بلادهم وكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها ، حتى حلوا بالمدينة من الجهد ويعتلوا بالإسلام وهم كاذبون ، فضيقوا على أصحاب رسول الله ﷺ وأجهدوهم ، فأنزل الله تعالى يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين ، فردهم رسول الله ﷺ إلى عشائرهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم ، فذلك قوله: ﴿وَلِيُذَرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ .

وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية: كان ينطلق من كل حى من العرب عصابة فيأتون النبى ﷺ ويسألونه عما يريدون من أمر دينهم ويتفقهون فى دينهم ، ويقولون لنبى الله ﷺ: ما تأمرنا أن نفعله؟ وأخبرنا بما تأمر به عشائركم إذا قدمنا عليهم ، قال فيأمرهم نبى الله ﷺ بطاعة الله وطاعة رسوله ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة ، وكانوا إذا أتوا قومهم نادوا: إن من أسلم فهو منا وينفرونهم ربهم ، حتى إن الرجل ليفارق أباه ، وأمه ، وكان النبى ﷺ يخبرهم وينذرهم قومهم ، فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة ، وقال عكرمة لما نزلت هذه الآية: ﴿إِلَّا تُنْزِرُوا بِإِذْنِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٣٩] و﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠] ، قال المنافقون: هلك أصحاب البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا

معه، وقد كان ناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم فأنزل الله عز وجل ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنِينَ لَيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ الآية، ونزلت: ﴿وَالَّذِينَ يَخَافُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جُمُوعُهُمْ ذَٰخِرَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ وَعَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٦] وقال الحسن البصرى ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لَيَفْتَقَهُوا فِي الدِّينِ﴾. قال: ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة، وينزلوا قومهم إذا رجعوا إليهم.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضرموت وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لكونهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس وجذب البلاد وضيق الحال، وكان ذلك سنة تسع من هجرته عليه السلام، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجته حجة الوداع، ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد حجته بأحد وثمانين يوماً، فاختره الله لما عنده وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - ، وقد مال الدين ميلاً كاد أن ينحفل فثبته الله تعالى به، فوطد القواعد وثبت الدعائم، ورد شارذ الذين وهو راغم، ورد أهل الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطعام، وبين الحق لمن جهله، وأدى عن الرسول ما حمله، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصليبان، وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد. وأنفق كنوزهما في سبيل الله كما أخبر بذلك رسول الإله، وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده، وولى عهده الفاروق الأواب، شهيد المحراب، أبى حفص عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، وقمع الطغاة والمنافقين واستولى على الممالك شرقاً وغرباً. وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقرباً. ففرقها على الوجه الشرعى. والسبيل المرضى. ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً. أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه شهيد الدار. فكسى الإسلام رياسة حلة سابقة. وامتدت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة. فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها. وعلت كلمة الله وظهر دينه. وبلغت الأمة الحنيفة من أعداء الله غاية مآربها. فكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، امثالاً لقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أى وليجد الكفار منكم غلظة عليهم فى قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذى يكون رفيقاً لأخيه المؤمن غليظاً على عدوه الكافر، كقوله تعالى: ﴿مَسَّ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكُفَّارِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وقوله تعالى:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ جَيْدٌ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُتَّقِينَ وَأَخْلَفَ عَلَيْهِمُ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩] وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «أنا الضحوك القتال» يعنى أنه ضحوك في وجه وليه قتال لهامة عدوه، وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أى: قاتلوا الكفار وتوكلوا على الله واعلموا أن الله معكم إن اتقيتموه وأطعتموه، وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى لم يزالوا ظاهرين على عدوهم. ولم تنزل الفتوحات كثيرة ولم تنزل الأعداء في سفال وخسار، ثم لما وقعت القتن والأهواء والاختلافات بين الملوك طمع الأعداء في أطراف البلاد وتقدموا إليها، فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام فأخذوا من الأطراف بلداناً كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحذوا على كثير من بلاد الإسلام ولله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام وأطاع أوامر الله وتوكل على الله فتح الله عليه من البلاد واسترجع من الأعداء بحسبه وبقدر ما فيه من ولاية الله؛ والله المسؤول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين وأن يعلى كلمتهم في سائر الأقاليم إنه جواد كريم.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هُنَا إِيْمَانًا فَآمَنَ الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَمٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فمن المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هُنَا إِيْمَانًا﴾ أى يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه السورة إيماناً قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء. بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد. وقد بسط الكلام على هذه المسألة في أول شرح البخارى رحمه الله ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَمٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أى زادتهم شكاً إلى شكهم وربياً إلى ريبهم كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً حَمِيمًا وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الْفَٰلِغِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي هَدَىٰ وَرَحْمَةً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي مَا آذَانُهُمْ وَقُرْءُوهَا عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يَتَذَكَّرُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدى القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم كما أن سعى المزاج لو غدى بما غدى به لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً.

﴿أَوَّلًا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَآرٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٢٨﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُمْ مِنْ أَعْيُنِهِمْ فَصَبَوْا فَخَبَرُوا﴾

يقول تعالى: أو لا يرى هؤلاء المنافقون ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ أى يختبرون ﴿فِي كُلِّ عَآرٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ أى: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم، قال مجاهد يختبرون بالسنة والجوع وقال قتادة بالغزو في السنة مرة أو مرتين،

وقال شريك عن جابر هو الجعفي عن أبي الضحى عن حذيفة في قوله: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَاصٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ قال: كنا نسمع في كل عام كذبة أو كذبتين فيفضل بها فثام من الناس كثير رواه ابن جرير وفي الحديث عن أنس: لا يزداد الأمر إلا شدة^(١) ولا يزداد الناس إلا شحاً وما من عام إلا والذي بعده شر منه،^(٢) سمعته من نبيكم ﷺ وقوله: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَكَأُنْحَرُوا مِنْ أَلْحَادِهِمْ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ هذا أيضاً إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أى تلتفتوا ﴿هَكَأُنْحَرُوا مِنْ أَلْحَادِهِمْ أَنْصَرَفُوا﴾ أى تولوا عن الحق وانصرفوا عنه وهذا حالهم في الدنيا لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه كقوله تعالى: ﴿فَمَا لَمْ يَنْتَهِرُوا عَنْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أى تلمذوا من فسوقهم [المدثر: ٤٩-٥١].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُفِصَ بَيْنَ عَنِ الَّذِينَ وَعَنِ الَّذِينَ هَٰؤُلَاءِ﴾ [المعارج: ٣٦-٣٧] أى: ما لهؤلاء القوم يتفللون عنك يميناً وشمالاً هروباً من الحق وذهاباً إلى الباطل .
وقوله: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥] أى لا يفهمون عن الله خطابه ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه بل هم في شغل عنه ونفور منه فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه .

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ حَسِبَ اللَّهُ لَوْلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ

يقول تعالى ممتثاً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولا من أنفسهم أى من جنسهم وعلى لغتهم كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَأَنْبِئْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أى منكم وبلغتكم كما قال جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه للنجاشي والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه ومدخله ومخرجه وصدقته وأمانته وذكر الحديث وقال سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية وقال ﷺ: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح» وقد وصل هذا من وجه آخر كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي في كتابه الفاصل بين الراوى والواعى: ^(٣) حدثنا أبو أحمد يوسف بن هارون بن زياد حدثنا ابن أبي عمر حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال: أشهد على أبي لحدثنى عن أبيه عن جده عن علي قال: قال رسول الله ﷺ «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبى وأمى لم يمسنى من سفاح الجاهلية شيء» وقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أى يعز عليه الشيء الذى يعنت أمته

(١) رواه ابن ماجه (٤٠٣٩) .

(٢) البخاري (٧٠٦٨) بنحوه .

(٣) حسن: المحدث الفاصل (١/٤٧٠)، والطبراني في المعجم الأوسط (٥/٨٠) برقم (٤٧٢٨) .

ويشق عليها ولهذا جاء في الحديث المروى من طرق عنه أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة»^(١) وفي الصحيح^(٢): «إن هذا الدين يسر وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه» **«حَرِيصٌ مَلِيحٌكُمْ»** أى على هدايتكم ووصول النفع الدنيوى والأخروى إليكم، وقال الطبرانى^(٣) حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ حدثنا سفيان بن عيينة عن فطر عن أبى الطفيل عن أبى ذر قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه فى الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علما قال: وقال رسول الله ﷺ: «ما بقى شىء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم» وقال الإمام أحمد: ^(٤) حدثنا أبو قطن حدثنا المسعودى عن الحسن بن سعد عن عبدة النهري عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يحرم حرمة إلا وقد علم أنه سيطلعها منكم مطلع، ألا وإنى آخذ بحجزكم أن تهاقوا فى النار كهافت الفراش أو اللذباب».

وقال الإمام أحمد^(٥): حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه ملكان فيما يرى النائم فقعدهما أحدهما عند رجله والآخر عند رأسه. فقال الذى عند رجله للذى عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته فقال: إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة ولم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل فى حلة حبرة فقال: رأيتم إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء تتبعوني؟ فقالوا: نعم قال: فانطلق بهم فأوردتهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء فأكلوا وهربوا وسمنوا فقال لهم: ألم ألكم على تلك الحال فجعلتم لى إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني؟ فقالوا بلى فقال: فإن بين أيديكم رياضاً هى أعشب من هذه وحياضاً هى أروى من هذه فاتبعوني فقالت طائفة صدق والله لتتبعه، وقالت طائفة قد رضينا بهذا نقيم عليه، وقال البزار^(٦): حدثنا سلمة بن شبيب وأحمد بن منصور قالوا حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان حدثنا أبى عن عكرمة عن أبى هريرة رضى الله عنه أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ يستعينه فى شىء قال عكرمة: أراه قال فى دم فأعطاه رسول الله ﷺ شيئاً ثم قال: «أحسنست إليك؟» قال الأعرابى: لا ولا أجملت فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا إليه فأشار رسول الله ﷺ إليهم أن كفوا فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ إلى منزله دعا الأعرابى إلى البيت فقال له: «إنك جئتنا فسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت» فزاده رسول الله ﷺ شيئاً وقال: «أحسنست إليك؟» فقال الأعرابى نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. قال النبى ﷺ: «إنك جئتنا تسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت. وفى أنفس أصحابى عليك من ذلك شىء فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب عن صدورهم» فقال: نعم فلما جاء الأعرابى قال رسول الله ﷺ:

(١) تقدم تخريجه.

(٢) صحيح: المعجم الكبير (٢/١٥٥)، برقم (١٦٤٧)، انظر مجمع الزوائد (٧/٢٦٥).

(٤) صحيح: المسند (٤٠١٧).

تنبيه: قال فى المسند: حدثنا أبو كامل، وفى الرواية الأخرى أيضاً من المسند قال: حدثنا وكيع، فليعلم.

(٥) المسند (٢٣٩٨).

(٦) ضعيف جداً: البزار (٢٤٧٦ كشف) فى سننه إبراهيم بن الحكم بن أبان، وهو متروك وانظر: مجمع الزوائد

(١٥١٩).

«إن صاحبكم كان جاءنا فسالنا فأعطيناه فقال ما قال ، وأنا قد دعوناه فأعطيناه فزعم أنه قد رضى ، كذلك يا أعرابي؟» فقال الأعرابي : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً . فقال النبي ﷺ : «إن مثلى ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً . فقال لهم صاحب الناقة خلوا بينى وبين ناقتي فأنا أرفق بها وأنا أعلم بها فتوجه إليها وأخذ لها من قنم الأرض ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها وإنى لو أظعتكم حيث قال ما قال لدخل النار» ثم قال البزار : لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه .

(قُلْتُ) وهو ضعيف بحال إبراهيم بن الحكم بن أبان والله أعلم ، وقوله : ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾ كما قال تعالى : ﴿وَلَا تُفْسِدْ جَنَّاتِكُمْ لِيَنْ أَبْهَكَ مِنَْ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ لِي بِرِيءٍ وَمَا تَعْمَلُونَ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْغَزِيِّزِ الرَّجِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٥-٢١٧] وهكذا أمره تعالى وهذه الآية الكريمة وهى قوله تعالى ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أى : تولوا عما جنتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى : الله كافي لا إله إلا هو عليه توكلت كما قال تعالى : ﴿رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩] ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أى : هو مالك كل شىء وخالقه ؛ لأنه رب العرش العظيم الذى هو سقف مخلوقات وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى ، وعلمه محيط بكل شىء وقدره نافذ فى كل شىء وهو على كل شىء وكيل .

قال عبد الله ابن الإمام أحمد : ^(١) حدثنا محمد بن أبى بكر حدثنا بشر بن عمر حدثنا شعبة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس رضى الله عنهما عن أبى بن كعب قال : آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة ، وقال عبد الله بن الإمام أحمد : ^(٢) حدثنا روح بن عبد المؤمن حدثنا عمر بن شقيق حدثنا أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب رضى الله عنهم أنهم جمعوا القرآن فى مصاحف فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه فكان رجال يكتبون ويملى عليهم أبى بن كعب فلما انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة ﴿ثُمَّ أَنْصَرُوا صَرْفًا صَرَفَكَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فظنوا أن هذا آخر ما نزل من القرآن فقال لهم أبى بن كعب إن رسول الله ﷺ أقرانى بعدها آيتين ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾ إلى قوله : ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ : قال هذا آخر ما نزل من القرآن فختم بما فتح به بالله الذى لا إله إلا هو وهو قول الله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وهذا غريب أيضاً .

وقال الإمام أحمد : ^(٣) حدثنا على بن بحر حدثنا محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد عن أبية عباد بن عبد الله بن الزبير - رضى الله عنه - قال : أتى الحارث بن خزيمه بهاتين الآيتين من آخر براءة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إلى عمر بن الخطاب فقال : من معك على هذا؟ قال : لا أدرى والله إنى لأشهد لسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

(١) المسند (٢٠٧٢٠).

(١) المسند (٢٠٦١٠).

(٣) ضعيف : المسند (١٧١٧).

ووعيتها وحفظتها فقال عمر: وأنا أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ ثم قال: لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة فانظروا سورة من القرآن فضعوها فيها، فوضعوها في آخر براءة، وقد تقدم أن عمر بن الخطاب هو الذي أشار على أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما - بجمع القرآن فأمر زيد بن ثابت فجمعه وكان عمر يحضرهم وهم يكتبون ذلك، وفي الصحيح أن زيداً قال: فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت أو أبي خزيمة، وقد قدمنا أن جماعة من الصحابة تذكروا ذلك عن رسول الله ﷺ كما قال خزيمة بن ثابت حين ابتدأهم بها والله أعلم، وقد روى أبو داود^(١) عن يزيد بن محمد عن عبد الرزاق بن عمر - وقال: كان من ثقات المسلمين من المتعبلين عن مدرك بن سعد قال يزيد شيخ ثقة عن يونس بن ميسرة عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال: من قال إذا أصبح وإذا أمسى: حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم. سبع مرات إلا كفاه الله ما بهمه. وقد رواه ابن عساکر في ترجمة عبد الرزاق بن عمر، هذا من رواية أبي زرعة الدمشقي عنه عن أبي سعد مدرك بن أبي سعد الفزاري عن يونس بن ميسرة بن حليس عن أم الدرداء سمعت أبا الدرداء يقول: ما من عبد يقول: حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات صادقاً بها كان أو كاذباً إلا كفاه الله ما أهمه. وهذه زيادة غريبة، ثم رواه في ترجمة عبد الرزاق أبي محمد عن أحمد بن عبد الله بن عبد الرزاق عن جده عبد الرزاق بن عمر بسنده فرفعه فذكر مثله بالزيادة وهذا منكر، والله أعلم.

آخر سورة براءة والحمد لله وحده .



(١) حسن: أبو داود (٥٠٨١) قال المنذري في الترغيب والترهيب (٢٥٥/١): رواه أبو داود هكذا موقوفاً، وقد يقال إن مثل هذا لا يقال من قبل الرأي والاجتهاد فسيله سبيل المرفوع.